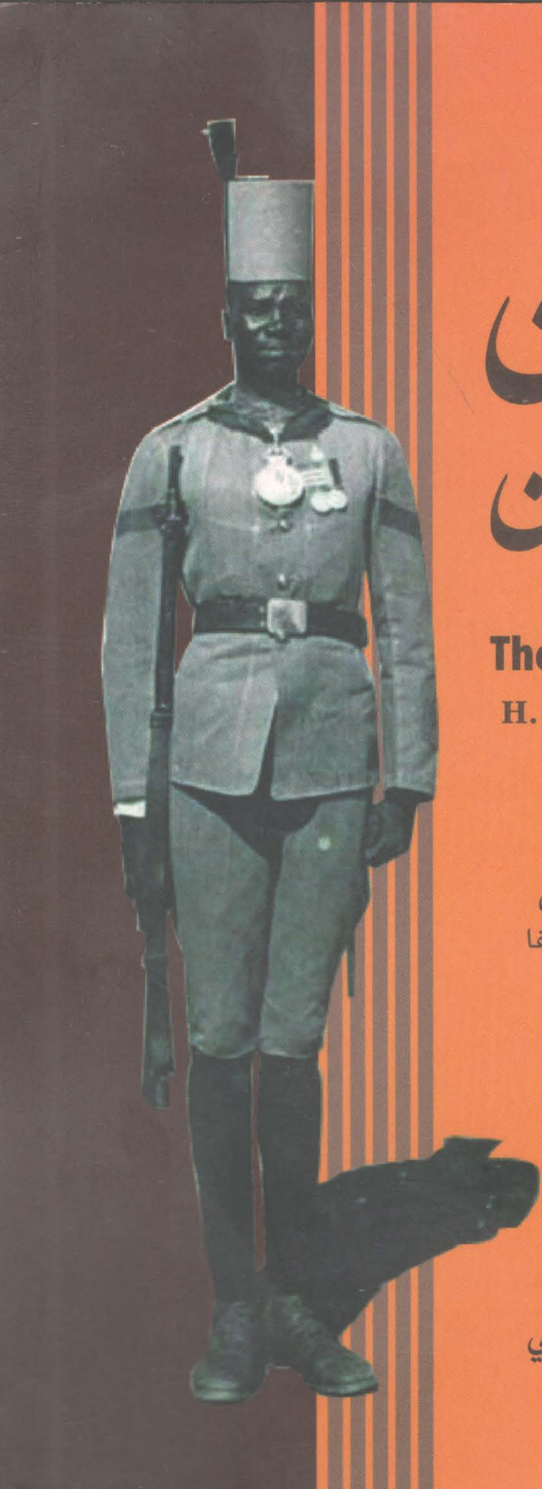


السودانيون المقاتلون

The Fighting Sudanese

H. C. Jackson 1883-1962

تأليف

هنري سيسل جاكسون

المدير السابق لمديريتي بربر وحلفا

ترجمة

بدر الدين حامد الهاشمي

هذا الكتاب

«يعرض الكتاب أربعة أحداث رئيسة وذات صلة بشجاعة السودانيين المقاتلين، أولها معركة توشكي التي خاضها الأمير عبدالرحمن النجومي ضد جيش السير فرانسيس قرينفيل (سردار الجيش المصري) عام 1889 ، وثانيها ولاء السودانيين للإمبراطورية البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى 1918-1914، حيث دعموها ماديا ومعنويا ، وثالثها تمرد الشيخ الفقيه عبدالله محمد إدريس الملقب بالسحيني على «الكفرة الانجليز» في نيالا عام 1921 ، ورابعها اشتراك قوة دفاع السودان ومتطوعو القبائل في الحرب العالمية الثانية 1939-1945 ، وتحديدا مجاهداتهم ضد الغزو الإيطالي في شرق السودان.“

المؤلف

هنري سيسل جاكسون 1962-1883 تلقى تعليمه الجامعي في كلية تونبريدج وإكستر وأكسفورد وبعد تخرجه التحق بخدمة حكومة السودان عام 1907 بمكتب السكرتير الإداري ومديرية سنار والخرطوم والنيل الأزرق وأعالي النيل والبحر الأحمر وبربر وبحر الغزال وحلفا حيث تقاعد عن العمل وعاد إلى بريطانيا . عمل سكرتيرا للخدمات الاجتماعية بمجلس ليفربول. كتب العديد من الكتب عن تاريخ السودان، وعن تجربته الادارية في السودان، منها كتاب «سن النار : بعض الروايات عن مملكة سنار القديمة» وكتابه عن ”العاج الأسود والأبيض أو قصة الزبير باشا“، الذي صدر في 1913 ثم كتابه عن عثمان دقنه 1926، وكتابه بعنوان ”أيامي في السودان“ الذي صدر عام 1954 وغيرها من الكتب، وقد ترجم معظمها الى اللغة العربية.

المترجم

ولد بدرالدين حامد الهاشمي بقرية ”أم علي“ في شمال السودان وتلقى تعليمه بالخرطوم، وتخرج في كلية الطب البيطري بجامعة الخرطوم عام 1975. حصل على درجة الدكتوراة من جامعة أدنبره عام 1981 في علم الأدوية وعمل أستاذا في جامعة الخرطوم، ثم في عدد من الجامعات في ليبيا والخليج. له بحوث علمية منشورة في مجلات علمية متخصصة ومحكمة نال عليها عددا من الجوائز العلمية. ترجم العديد من الكتب والروايات والمقالات.

الناشر

دار باركود مؤسسة تعليمية / ثقافية للتأليف والترجمة والنشروالتوزيع. تم افتتاحها حديثا مع تباشير العهد الجديد في يونيو 2019 بالخرطوم - الرياض مربع 21 بجوار كلية امبريال. تهدف الدار الى خدمة البحث العلمي وتنمية الوعي بنشر وترجمة الكتب الثقافية واصدار الكتب الجادة والمتميزة شكلا وموضوعا. كما تهدف إلى رفد المكتبة العربية بأحدث الإصدارات والتعريف بالانتاج الفكري السوداني وتسويق الكتاب السوداني.



E-mail:bcode@barcodebookshop.com

9 789994 273621

ردمك: ISBN: 978-99942-73-62-1

السودانيون المقاتلون

The Fighting Sudanese

H. C. Jackson 1883-1962

تأليف

هنري سيسل جاكسون

المدير السابق لمديريتي بربر وحلفا

ترجمة

بدر الدين حامد الهاشمي

الناشر



2020

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان
940.53
ج.س جاكسون، هنري سيسل، 1861 - 1913.
السودانيون المقاتلون / هنري سيسل جاكسون؛ ترجمة بدرالدين حامد الهاشمي -
ط1 . الخرطوم : دار باركود للنشر والتوزيع والترجمة، 2020.
96ص: خرائط؛ 24 سم.
ترجمة ؛ لكتاب The fighting Sudanese
ردمك: 978-99942-73-62-1
1. الحرب العالمية الثانية 1939 - 1945 2. السودان - الجيش - تاريخ.
أ. بدرالدين حامد الهاشمي، مترجم ب. العنوان. ج. عنوان: The fighting Sudanese
.

التصميم والطباعة

سينان العالمية للطباعة

تصميم الغلاف

محمدالهادي السنوسي

الناشر



تلفون: ٢٤٩ ٩٩٩٨١٣٢٢٢ +
E-mail:bcode@barcodebookshop.com
www. barcodebookshop.com
2020

THE FIGHTING SUDANESE

BY

H. C. JACKSON

Formerly Governor of the Provinces of
Berber and Halfa in the Sudan

WITH A FORWARD BY
GENERAL SIR WILLAIM PLATT
G.B.E., K.C.B.,D.S.O.

LONDON
MACMILLAN & CO LTD
NEW YORK.ST MARTIN'S PRESS
1954

كتب أخرى للمؤلف

- Osman Digna
- Tooth Of Fire
- Sudan Days And Ways
- Black Ivory And White
- The Neur Of The Upper Nile Province
- Gordon Pasha (Translated By Aziz Yusef El Masih)



كلمة الناشر الإنجليزي

لهذا الكتاب، على صغر حجمه، أهمية معينة، خاصةً وأن كثيرا من السودانيين قد صوتوا للوحدة مع مصر بأكثر من الاستقلال التام أو نوع من الارتباط بالكومنويلث البريطاني.

ينبغي أن يقرأ هذا الكتاب كل من يرغب في الاطلاع على معلومات موثقة عن حقيقة مشاعر السودانيين.

ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء، يؤكد كل واحد فيها على شجاعة السودانيين، وإخلاصهم وولائهم للبريطانيين. غير أن معظم الكتاب مُكَرَّس لسرد الأعمال البطولية للسودانيين في غضون سنوات الحرب العالمية الثانية – وهي حرب لم يشارك المصريون فيها، على الرغم من أن القطر الذي لطالَما تاقوا لحكمه كان مهددا بجيوش موسوليني المرابطة على حدود السودان مع الحبشة وأرتيريا.

ومهما يكن ما يخبئه القدر لمستقبل سكان هذا البلد العظيم، فإن كتاب «السودانيون المقاتلون» قد سجل سردا باقيا لأحداث تلك الأيام التي أحس فيها السودانيون بالفَخّاروهم يقاتلون جنبا إلى جنب مع البريطانيين رفقاء السلاح.

قَدَّمَ للكتاب اللواء وليام بلات، القائد البريطاني الذي كان على رأس تلك القوات التي قادت السودانيين للنصر في الحبشة وأرتيريا.

***

محتويات الكتاب

إهداء المؤلف

أهدي هذا الكتاب إلى
شعب السودان
الذي خدم بإخلاص
وحارب بشجاعة منقطعة النظير
من أجل حرية الجنس البشري

إهداء المترجم

إلى والدي ... كما ربياني صغيرا

وإلى كل من علمني حرفا

وإلى وطني الكبير وعائلتي الصغيرة ...

شكر وعرفان (المؤلف)

أود أن أعـبر عن شـكري الجزيل للواء سـير ويليـام بلات، ليس فقـط على كتابتـه لمقدمة لهذا الكتـاب، ولكن أيضـا لتفضله بقراءة مخطوطتـه، وتصحيح مـا وجده فيها من أخطاء (وتقع مسـؤولية ما بقي فيها من أخطاء علي وحدي). وأشكر كذلك العقيد براون من فيلق العرب الغربي (القيادة الغربية)، والسيد ك. د. هيندرسون، من القسـم السياسي لحكومة السودان، والعميد أ. نوت والرائد براموبل ويزرس لمسـاعدتهم القيمة لي. والشكر موصول للورد رينيل، لورد رود وللسـادة الناشرين (إيـدوارد أرنولد) لسـماحه بنقل جزء من قصيدة سير رينيل رود، ولمحرر مجلة "السودان في رسائل ومدونات SNR" لسـماحه لي باسـتخدام المعلومات عن الدفـاع عن نيالا التي وردت في العدد الخامس والعشرين من المجلة. وأشـكر كذلك السيدة روث هارقريف لتصحيحها لمسـودة الكتاب. وكنـت محظوظا وأنا أجمع المعلومات التي وردت في الفصل الثالث من الكتاب، إذ أني كنت قد أستقيت المعلومات التي وردت به من وثائق ليست متاحة لعموم القراء. ومن المصادر المفيدة التي اطلعت عليها أذكر ما يلي:

مطبوعات حكومة السودان

Sudan Government Publications
Meadowforce, by Bimbashi A. C. Beaton.
Kassla at war, by B. Kennedy – Cooke, M.C.
The Composite Infantry Battalion in the Eastern Arab Corps,

Sudan Defence Force, in the Abyssinian Campaign, by el Miralai G. Gifford Bey.
The Sudan, a Record of Progress, 1898 – 1947.
The Upper Nile and the War (1940 - 41), by G. N. I. Morrison.

وثائق أخرى

Other Documents

Incident in the War in the Fung, 1940 – 41. From a talk by J. W. Robertson, at the Cultural Centre, Khartoum. Reprinted from Sudan daily Herald by Messrs. McCorquodale & Co. (Sudan Ltd.).
Retrospect. Lecture by Lieutenant – General Sir William Platt, K.C.B., D. S.O., at the Cultural Centre, Khartoum, 24 September 1941. Reprinted from Sudan daily Herald by Messrs. McCorquodale & Co. (Sudan Ltd.).
Sealed and Delivered, by G. L. Steer.
Sudan War –Time Economy. Text of a talk broadcast from Khartoum on 23 March 1944 by Mr. R. C. Couldrey, C.B.E., Controller – General of War Supply, Sudan government.
Survey of the Anglo – Egyptian Sudan, 1898 – 1941, by K.D.D. Henderson.
Survey of the Anglo – Egyptian Sudan, 1898 – 1944, by K.D.D. Henderson.
The Abyssinian campaigns: the official story of the conquest of Italian East Africa.
The Lees Knowles Lectures, by General Sir William Platt.
'The Sudan and Abyssinian campaign' by K.D.D. Henderson, published in the Journal of the Royal African Society, January 1943.
'The Sudan Defence Force goes to War', article by Brigadier A. J. Knott, O.B.E., in the Royal Engineers' Journal, vol lviii, September 1944.

مقدمة

اللواء سير ويليام بلات

قائد القوات السودانية وقائد قوة دفاع السودان

أقدمت أرتال من قوات المشــاة والمدفعية والمدرعات الإيطالية على عبور الحدود الإرترية في هجوم متعدد المحاور على كسلا، تلك المدينة التجارية الصغيرة القريبة من حدود الســودان الشرقية. وكان تحت قائد ذلك الجيش الايطالي الغازي ما لا يقل عن 10,000 من الجنود.

وكان لزامــا لمقاومــة ذلك الهجوم الضــاري تحضير ثلاث سرايا بمدافع رشاشة متحركة وسرية مشاة راكبة من قوة دفاع السودان، كانت أثقل أســلحتها هي المدافع الرشاشــة من نــوع (303 فايكرز) والبنادق المضادة للدبابــات (موديل 1938). لم يكن عدد تلك القوة يتجاوز ستمائة فردا، تحت قيادة عدد قليل من الضباط البريطانيين.

وظلــت القوات الإيطالية مــن بزوغ الفجر حتى الغســق تهاجم القوات الســودانية دون انقطاع تحت حماية مــن الطائرات المقاتلة والقاذفة، بينما كانت أقرب طائرة بريطانية تنشــط في المنطقة قرب البحر الأحمر: ولم تكن في سماء كسلا أي طائرة لتفرح قلوب جنودنا وهم يتصببون عرقا تحت شمس الصحراء.

وطبقــا لمــا تدربت عليــه السرايا الســودانية، واصــل الجنود في تحركهــم وهــم يندفعــون ويلدغــون الأعــداء وكأنهم بعــوض آلي.

وسرعان ما ينسلون من الموقع بعد ذلك قبل أن يتخذ الإيطاليون أي خطوة دفاعية فعالة ضدهم. ويكررون نفس الهجوم الخاطف في موقع آخر، بعد دقائق معدودة، وربما بعد ساعة من هجومهم السابق.

وتَسَرَّبَت أنباء المعارك بصورة متقطعة إلى رئاسة قوة دفاع السودان بالخرطوم عبر 250 ميلا من الصحراء المنبسطة المفتوحة. وبلغت تلك الأنباء إلى أيادي متلهفة وقلقلة عن طريق لاسلكي غير منتظم أو تلغراف السكة حديد. كانت الكثير من المعلومات التي بلغت الخرطوم تتسم بالغموض. وغدا الموقف ضبابيا تماما.

وتوالت الطلبات للحصول على طائرة لتطير فوق جيش العدو وتستطلع ما عنده. وكانت الطائرات التي يمكن أن تقوم بمثل تلك المهمة لا تزيد عن أربع طائرات من نوع فينسنت، صنعت في حوالي عام 1928م، ولا تزيد سرعتها عن 100 ميل في الساعة مع اتجاه الريح، وقد تكون محظوظة إن بلغت سرعتها 80 ميلا في الساعة إن طارت ضد اتجاه الريح. وتقرر أن تقوم الطائرات الأربع بطلعات في اليوم التالي على أمل أن تعود إحداها ببعض الأنباء.

لم يكن ذلك اليوم يوما للتضحيات، بل كانت ليلة للتخمين. هل سيقوم الايطاليون، وقد بدأوا في تذوق طعم بعض الانتصارات، في الشروع في هجوم استراتيجي ضخم لتحقيق حلمهم في بسط سيطرة إيطالية (خضراء) على كل شمال وشرق أفريقيا، من طرابلس إلى المحيط الهندي؟أم سيقنعوا باحتلال أميال قليلة من رمال الصحراء والثرثرة في جهاز اللاسلكي؟ وإن تجرأوا وتقدموا فهل سيهاجمون

غرب الخرطوم، عاصمة البلاد، أو شمال غرب البلاد في أتبرا، قلب السكة حديد، أو شمالا، حيث الميناء الوحيد بالسودان؟

وعبر آلاف الأميال من الحدود هاجم الايطاليون كسلا والقلابات، وهددوا نقاطا أخرى. ولم تكن هنالك من قوات سودانية تتصدى لهم سوى أعداد قليلة جدا من الجنود. وهذا مما ترك ثغرات واسعة في الحدود سدها السودانيون من رجال الشرطة والمفتشين المتحمسين والمتطوعون الشجعان ببنادق استعاروها أو شحَذَوها من هنا وهناك. وكانت هنالك خلف تلك الأعداد القليلة من هؤلاء ثلاث كتائب إنجليزية نظامية من يوركشير وويرسيسترشير واسكس.

وصمد السودان لشهرين كاملين حتى بدأت تصله تعزيزات في أغسطس وسبتمبر. وظل صامدا بقوة (وكأن آلة ما قد أمسكت به) بفضل ستة آلاف من الجنود السودانيين والفين من البريطانيين، ليس معهم جميعا أي دبابة ولا مدفع، وكل ما كان يملكونه هو بضع بنادق أتوماتيكية.

هل سبق لأي جنود في تاريخ هذا العالم أن تعرضوا لاختبار أقسى مما تعرض له أولئك السودانيين؟ لم يكونوا قد خاضوا منذ معركة أم درمان أي قتال ضد قوة معادية. كل ما صادفوه كان حركات تمرد محدودة وهبات قبلية متفرقة، وثورات داخلية. وكانت تلك هي غاية التجارب التي اكتسبوها عمليا في مجال القتال. ولم يكونوا قد قاسوا أو حتى رأوا من قبل أهوال الحرب الحديثة. كان اسم قوتهم قوة «دفاع».

أتـى ذلك الاختبار القاسي مع غـزو الايطاليين لبلادهم. ويعرض هـذا الكتـاب لبعض ما حدث في ذلـك الغزو. ولا يمكـن أن نعد ذلك الحـدث حدثـا معزولا عن غيره مـن الأحداث. لقـد كان مثالا واحدا فقط تبعته عدة أحداث تشـابهه في الأسـلوب والطراز، وفي الشجاعة وقوة التحمل، حينما وأينما يدعو داعي القتال والواجب. وأتى ردهم على شـاطئ البحر الأحمر، وبين الصخور وأعشاب الرمح في الجَرْف المحيط بكرن والشـلقا (Chilga)، ومناطق قوجام الماطرة الباردة، وفي مسـتنقعات «نتوء بارو» (بمنطقة غامبيـلا الإثيوبية. المترجم)، وفي الجبـال والغابات القريبة من أعالي النيل، وفي السـهول والتلال القريبة من أرض الوطن.

وأفلحـوا في اجتياز كل الامتحانات التـي خاضوها، ونالوا – عن جـدارة واسـتحقاق – وبكل فخر الاسـم الذي أطلقه عليهم السـيد هنري سيسل جاكسون: «السودانيون المقاتلون».

جراسمير، نوفمبر ١٩٥٣م.

تقديم

أحمد إبراهيم أبوشوك

ارتبط اسم جاكسون (Jackson) في أدبيات الحكم الثنائي (1898-1956م) في السُّودان بثلاثة شخصيَّات بريطانية، تركت بصماتها في مخيلة الشعب السُّوداني، لكن بعض الباحثين خلط بين هذه الشخصيَّات، ودمجها في معظم الأحيان في شخص واحد، ونذكر على سبيل المثال السفير عوض أحمد الضو، الذي ترجمَّ كتاب هنري سيسل جاكسون (Sudan Days and Ways) إلى اللغة العربية بعنوان "أيامي في السُّودان»،حيث نسب طرفاً من حياة المؤلف إلى هاربرت وليم جاكسون، عندما ذكر في مقدمة ترجمته قائلاً: «كان جاكسون معروفاً بتعاطفه مع الفقراء والمحرومين، وخاصة الأرقاء، مما أكسبه محبة هذه الفئات على وجه خاص. وكانت آخر وظيفة شغلها تحت نظام الحكم الثنائي هي وظيفة مدير المديرية الشمالية، ورغم أنه توفي في بداية الخمسينيات من القرن الماضي؛ إلا أنه ما يزال هناك، في مروي، قصر فخم، وحديقة غناء باسمه، كما أنه دُفن في جبل البركل، المواجه لمروي في الضفة الأخرى من النيل.» (ص 11). والمقصود في هذا الاقتباس هو السير هاربرت وليم جاكسون (1861-1931م)، الذي درس في بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، ثم

التحـق بالجيش المصري، وبعدهـا أُنتدب لخدمة حكومة السُّـودان عام 1899م، حيث عمل مديراً لمديرية بربر (1899م)؛ ثم سـكرتيراً إدارياً، ونائباً للحاكم العـام (1900-1901م). وبعد انتهاء خدمته بمكتب الحاكـم العام، عاد مديراً لمديرية بربـر عام 1902م، ومنها انتقـل إلى مديريـة دُنْقُلا (1902-1922م)، التـي قضى فيها أطول سـني خدمته بالسُّـودان، ومـن دُنْقُلا انتقل إلى وظيفـة مفتش عام في الخرطوم (1922-1923م)، وأخـيراً آثر التقاعد بمدينة مروي، التي أسـس فيها شـبكة واسـعة من العلاقات الاجتماعية. وطاب له المقام في مروي إلى أن أدركته المنية في شتاء 28 يناير 1931م، ودُفن جثمانـه بالمدينة التـي أحبها واختارها موطناً لمعاشـه. وبعد انتهاء مراسـيم الدفن والعـزاء، أقام المسـؤولون والأهـالي بمدينة مروي نصباً تذكارياً على قبر الجنرال الراحل، كما وصفت جريدة السُّودان الرسـمية مراسيم تشـييعه بأنها كانت فريدة في نوعها، حيث زُرفت فيها دموع المئات من الرجال والنساء، الذين طوقوا منزل جاكسون باشـا، وشـيعوا جثمانه المُسـجَّى بالعلم البريطاني إلى مثواه الأخير عنـد أطراف مدينة مـروي الحزينة، تقديراً للفـترة التي تقدر بربع قـرن من الزمان، قضاها بـين ظهرانيهم صديقاً محبوباً وفاعل خيرٍ معطـاءً. ويقال إنـه في أواخر أيام حياته قد تـزوج امرأة من منطقة مـروي، وأنجب منهـا ابنه الوحيـد عباس، والد نـصر الدين عباس جكسـا، الـذي كان لاعب كرة قدم شـهير في فريق الهـلال والفريق القومي السُّـوداني. وحسـب الروايات المتداولة بين الناس إن اسـم جـده لأبيه قد دُوِّن من سـجلات المواليد والوفيات باسـم «جكسـا»

بدلاً عن جاكسون باشا، وإن ميدان جاكسون الذي يوجد في جنوب الخرطوم (الآن موقف للمواصلات العامة)، قد سمي تخليداً لذكراه، وتقديراً لأعماله الجليلة التي قدمها للسودان.

أما الشخصية الثانية التي حملت اسم العائلة (جاكسون) نفسه، فهو أرنست سمرفيلا جاكسون (1872-1943م)، الشهير جاكسون بك، والذي بدأ حياته العملية ضابطاً بالجيش البريطاني، ثم أُنتدب للعمل في الجيش المصري عام 1898م، حيث ترقي إلى رتبة أميرلاي. اشترك جاكسون في الحملة التي قادها السير ونجت باشا ضد الخليفة عبد الله عام 1899م، وبعد أن استقام الأمر للحُكام البريطانيين في السُّودان، قضي جاكسون بك باقي حياته في خدمة حكومة السُّودان، وعمل نائباً لمدير مديرية دنقلا في أواخر سني خدمته. وتقاعد عن العمل الإداري بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914م، آثراً البقاء في مزرعة اشتراها من ضابطين مصريين (صبري ورياض) عام 1913م في منطقة منصوركتي، التابعة لعمودية قنتي بمديرية دنقلا آنذاك. وعندما قرر العودة إلى بريطانيا عام 1937م، عرض المزرعة في عطاءٍ عامٍ، وكان العطاء من نصيب السيد علي الميرغني، وأضحت تلك المزرعة تعرف لاحقاً بجنينة السيد علي الميرغني.

أما جاكسون الثالث وصاحب الصلة بموضوع هذا التقديم، فهو هنري سيسل جاكسون (-1883 1962م)، الذي تلقى تعليمه الجامعي في كلية تونبريدج (Tonbridge) وإكستر (Exeter)،وأكسفورد (Oxford) ، حيث حصل على المرتبة الثالثة

في الدراسات الكلاسيكية، والمرتبة الثانية في الأدب الإنساني. وبعد تخرجه التحق بخدمة حكومة السُّودان عام 1907م، حيث بدأ حياته العملية في مكتب السكرتير الإداري (1907-1908م)، ومديرية سنار (1909-1910م)، والخرطوم (1911-1913م)، والنيل الأزرق (1914-1919م)، وأعالي النيل (1920-1922م)، والبحر الأحمر (1923-1924م). وفي سنواته الأخيرة شغل وظائفاً إداريةً عليا، شملت مدير مديرية بربر (1924-1926م)، ومحافظ بحر الغزال (1926-1927م)، ومدير مديرية حلفا (1928-1931م) إلى أن تقاعد عن العمل الإداري عام 1931م، وعاد إلى بريطانيا، حيث عمل سكرتيراً للخدمات الاجتماعية بمجلس ليفربول (1932-1945م)، وتوفي عام 1962م. وقد عُرف هنري سيسل جاكسون بمؤلفات عديدة عن تاريخ السُّودان وعن تجربته الإدارية في ذلك القطر المنبسط الأطراف آنذاك في ظل وسائل مواصلات بدائية. وقد استهل مؤلفاته بكتابه الموسوم بـ "سن النار: بعض الروايات عن مملكة سنار القديمة Tooth of Fire: Being account on the Ancient Kingdom of Sennar)، 1912م، والذي ترجمه إلى اللغة العربية الحاج سالم مصطفى؛ وثانيهما كتابه عن "العاج الأسود والأبيض، أو قصة الزبير باشا، تاجر الرقيق والسلطان، كما روى بنفسه (Black Ivory & White: Or, The Story Of El Zubeir Pasha, Slaver & Sultan, As Told by Himself)، 1913م؛وثالثها كتابه عن "عثمان دقنة" (Osman Digna)، 1926م، والذي نقله إلى العربية البروفسيور بدر الدين الهاشمي؛ ورابعها كتابه عن "السُّودانيون

المقاتلون" 1954، (Fighting Sudanese)م؛ وخامسها كتابه عن "أيامي في السُّودان" 1954، (Sudan Days and Ways)م، والذي نقله إلى اللغة العربية السفير عوض أحمد الضو؛ وسادسها كتابه عن "ما وراء السُّودان الحديث"، (Behind the Modern Sudan) 1955م؛ وسابعها "قس على النيل: بعض الروايات لحياة لويلين ه. جوين ورسائله" (Pastor on the Nile-Being some Account of the Life and Letters of Llewellyn H. Gwynne)، 1960، الذي لم يُترجم بعد.

ما أهمية كتاب «السُّودانيون المقاتلون»؟

يعرض الكتاب أربعة أحداث رئيسة وذات صلة بشجاعة السُّودانيين المقاتلين. أولها، معركة توشكي التي خاضها الأمير عبد الرحمن النجومي ضد جيش السير فرانسيس قرينفيل (سردار الجيش المصري) عام 1889م؛ وثانيها ولاء السُّودانيين للإمبراطورية البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى (1914-1918م)، حيث دعموها مادياً ومعنوياً؛ وثالثها، تمرد الشيخ الفقيه عبد الله محمد إدريس الملقب بالسحيني على «الكفرة الإنجليز» في نيالا عام 1921م؛ ورابعها اشتراك قوة دفاع السُّودان ومتطوعو القبائل في الحرب العالمية الثانية (1939-1945م)، وتحديداً مجاهداتهم ضد الغزو الإيطالي في شرق السُّودان. والكتاب في مجمله لا يخلو من بعض الإيماءات الاستشراقية والخطاب الاستعلائي، عندما يصف جاكسون أنصار الإمام المهدي «بالدراويش»، وينعت

الإيطاليين «بالمستعمرين الجبناء» في مقابل وصفه للبريطانيين بأنهم رسل رحمة، جاؤوا لإنقاذ السُّودان وأهله من براثين الحكم المهدوي الظالم. لا يُعدَّ الكتاب مصدراً أولياً وفق المعايير الأكاديمية المعتبرة؛ لأن جاكسون ألَّفه بعد عودته إلى بريطانيا، واعتمد في تأليفه على كمٍ مقدرٍ من المصادر الأولية والثانوية، التي ساعدته في بناء مدونته التاريخية؛ لكن الشيء الذي لفت نظري أن كتاب «كيف أُعِدَ السُّودان الحديث» (The Making of the Modern Sudan)، الذي جمع ك.د.د. هندرسون فيه مراسلات السير دوغلاس نيوبولد، لم يحظ باستشارة المؤلف، علماً بأنه يحتوي على معلومات أولية عن الحرب العالمية الثانية وتداعياتها في السُّودان، وذلك بحكم أن صاحب المراسلات كان من ضمن الإداريين البريطانيين الذين عاصروا الحرب وتحدياتها في السُّودان، وقاموا بدور مؤثر في إدارة شؤونها السياسية والعسكرية آنذاك. لكن هذه الملاحظة لا تقدح في قيمة الكتاب، لأنه يكمِّل الصورة الخاصة بأحداث الحرب العالمية الثانية، كما يوثِّق لشجاعة السُّودانيين المقاتلين من خلال الأحداث التي سردها المؤلف عن معركة توشكي، والقضاء على تمرد الفقيه السحيني، والحرب العالمية الثانية في شرق السُّودان، كما يتطرق لوفاء وجهاء المجتمع لحكومة صاحب الجلالة أثناء الحربين العالميتين. وفي إطار كتاب "السُّودانيون المقاتلون" نلحظ أن هناك بعض القضايا التي تحتاج إلى إضاءاتٍ كاشفة.

أولاً: نلحظ أن المؤلف جاكسون قد أولى اهتماماً خاصاً لشجاعة السُّودانيين المقاتلين في مواقف حربية عديدة، ونذكر منها تلك التي

ارتبطت بحملة عبد الرحمن النجومي على مصر، حيث واجه الأنصار (الدراويش) أجلهم المحتوم في معركة توشكي 1889م؛ بالرغم من أنَّ الهزيمة كانت متوقعة؛ إلا أنَّ المؤلف أظهر أعجاباً واضحاً بشجاعة الأمير عبد الرحمن النجومي، الذي وصفه بإيمانه القاطع: «بصلاح المهدي، وصحة دعوته»، وأكد أن خصومه كانوا «يحترمونه لشجاعته وشكيمته ومهارته، ويعدونه أفضل في مجال القيادة من الأمير عثمان دقنة، الأكثر شهرة.» كما يصف جاكسون تصميم النجومي على خوض المعركة ضد جيش الجنرال قرينفيل، بقوله: «وظلت رايات أمراء الدراويش ترفرف في وسط حرارة ذلك الصيف الحارق، تتحدى (بضعف شديد) ذلك الجيش المدجج بالأسلحة الفتَّاكة الموجهة نحوهم. وكان بعض مقاتلي الدراويش يتمنون لو كان بمقدورهم الفرار من المصير المحتوم الذي كان ينتظرهم، بينما تسرب الشك إلى نفوس بعضهم من صحة الدعوة التي هبوا من أجل نصرتها، وهل هي بالفعل تستحق منهم التضحية بالحياة. غير أنَّ ود النجومي بقي وحده هادئاً مطمئناً وثابتاً على موقفه. وخاطب قواده وأفراد جيشه بما يفيد أنه لا أمل في الانتصار، وطلب من كل من تسرب الشك أو الخوف إلى قلبه، أو من يريد التراجع عن قبوله بدعوة المهدية أن يغادر. أخبرهم بصريح العبارة أنه لا يستطيع أن يعدهم بأي أمل في النصر، غير أنه يعدهم بميتة الشهداء، وحياة مخلَّدة في دار النعيم، تنتظرهم إن هم بقوا على عهدهم وحربهم ضد عدوهم. ولوح بسيفه وهو يخبرهم بأنه لن يحيد عن الدعوة المهدية، أو يهجر مهمته المقدسة. وأحيت خطبته الحماسية تلك ما

اندثر من أمل ورجاء عند مقاتليه، ولم يرض بالانسحاب من ساحة المعركة سوى خمسمائة منهم.» لكن مثل هذه الشجاعة الخارجة عن المألوف تعطي انطباعاً بأن القائد الذي ينطلق من منصة أيديولوجية في أغلب الأحيان تغيب عن ذاكراته الرؤية الاستراتيجية في الحرب وفنها؛ لأن الحرب ليست غايةً في ذاتها، بل وسيلة لتحقيق مكسب سياسي استراتيجي، فإذا كانت الهزيمة محسومة سلفاً فلا داعي إلى خوضها؛ لأن الهزيمة تفضي إلى ضياع الهدف الذي من أجله أُسست فكرة الحرب نفسها. ومن زاوية أخرى نلحظ أن المؤلف قد سخر من شجاعة بعض السُّودانيين المقاتلين، لأنها من وجهة نظره كانت شجاعة تدل على عدم «المبالاة وعدم الاكتراث، وهذا ما أحدث قلقاً كبيراً عند قادتهم». ويستشهد في ذلك بحادثة مأساوية كان ضحيتها أحد الهدندوة، استلقي «على ظهره إلى جانب قنبلة لم تنفجر.. [ثم] أخذ عصاً صغيرة، وطفق ينقر على القنبلة إلى أن انفجرت فجأة فيه، ومزقته إرباً أمام ناظري ولده الصغير». ولا جدال في أن مثل هذه الحوادث تجمع بين الجهل من طرف وعدم المبالاة من طرف ثانٍ، دون أن تُصنف بأنها سلوك شجاع، كما يرى تور نوردنستام (Tore Nordenstam) في مؤلفه "الأخلاق السُّودانية" (Sudanese Ethics).

ثانياً: يعطى مؤلف (السُّودانيون المقاتلون) إشارة مهمة على قدرة السُّودانيين في إدارة حياتهم المدنية في ظل ظروف الحرب الصعبة وإفرازاتها السالبة، وإذ يذكر مدينة كسلا التي ظلت في «أيدي الإيطاليين لنصف عام كامل. غير أنَّه على الرغم من الأخطار

والحرمـان، واصل مجلـس المدينة تحت قيادة السـيد محمد عثمان الميرغني وشـقيقه السـيد الحسـن الميرغني عمله بأفضل ما يمكن»؛ ومن جانب آخر يثني جاكسون على دور الإداريين السُّودانيين الذين تولوا مناصـب إدارية-تنفيذية أثناء فترة الحرب، فمارسـوا عملهم «بكفـاءة واقتدار، فكانوا مصدر فخار لأنفسـهم وفائدة للآخرين.» ويقودنا هذا النجاح إلى طرح سؤال محوري: لماذا نجح السُّودانيون في إدارة شـؤونهم الحياتية في ظل الإدارة الاسـتعمارية، وفشلوا في أداء الدور نفسه بعد أن نالوا استقلالهم عام 1956م، لدرجة جعلت الدكتور منصور خالد يصف النخبة منهم بإدمان الفشل؟ هل يُعزى فشـل النخبة السُّـودانية إلى قابلة العقل السُّـوداني للاستعمار، كما يصـف مالك بن نبي الشـعوب التي عجزت عن تطويـر بلدانها بعد خروج المسـتعمر الأوروبي؟ لكن الدكتور جعفـر محمد علي بخيت (ت. 1975م)يبرر فشل النخبة السُّودانية بقوله: «الاضطراب وعدم الاسـتقرار السـائدان في الحياة العامة [في السُّـودان] ليس سـببهما عوامل خلقية، أو قصور في الخيال، أو جموح إلى طلب السلطة، وإنما مرده إلى طبيعة عجز السـلطة المركزية مـن خلق ولاء طاغي يجذب نحـوه الولاء القطاعي، ويجعله يدور حول فلكه، ولا يسـمح لقطاع معين بأن يسـيطر عليه حتـى لا يمحو قيمه العامـة بقيم محدودة. والذي يعجز السـلطة المركزية عن ذلك هو تشكيل القوى الضاغطة في المجتمع السُّوداني، وطبيعة تشكيلها الاجتماعي، ثم حاجة النظام البرلماني إلى سـند شـعبي، لا يتوفر إلا داخل تشـكيلات هذه القوى بوضعها الراهن.» لكن لا شـك في أن هـذا الاقتباس المرتبط بمبررات

دكتور جعفر لفشل النخبة السياسيةيحتاج إلى بحث أعمق، وفي فضاء أكاديمي آخر غير فضاء هذا التقديم.

ثالثاً: أشار المؤلف إلى شخصيتين مهمتين أثناء الحرب العالمية الثانية وانعكاساتها على شرق السُّودان. أولهما، إيفانز بريتشارد (Evans-Pritchard)، عالم الانثروبولوجيا البريطاني، الذي كان ملازماً للجنودالسُّودانيين أثناء حركتهم في الأماكن التي احتلها الإيطاليون، حيث كان مشغولاً بجمع بعض المعلومات المرتبطة بدراساته الانثروبولوجية عن قبائل الزاندي، والأنواك، والنوير في جنوب السُّودان. وفي تلك الاثناء قام بريتشارد بدور "انثروبولوجي الحكومة" الاستعمارية؛ لوضع بعض الطرق المُحفِّزة للقبائل النيلية على الاشتراك في الحرب ضد الإيطاليين، ولكنه بعد انتهاء الحرب أضحى مهتماً بالذهاب إلى العمل الميداني دون الاستعانة بأي مرشدٍ، أو مخبرٍ، أو معاونٍ، محتجاً بأن مثل هذه التجربة تدفعه إلى تعلم لغة الأهالي، واستيعاب طرائق تفكيرهم، ومعرفة القيم الحاكمة لتصرفاتهم الأخلاقية، وتحدد مسارات سلوكهم الاجتماعي. ومن هذه الزاوية، يُعد إيفانز بريتشارد رائداً في مجاله؛ لأن أصدر جملة من الدراسات الانثروبولوجية الفاحصة التي أضافت بُعداً آخر لأدبيات المدرسة البنيوية الوظيفية.

أما الشخصية الثانية فهو الإمبراطور هيلا سلاسي (1892-1975م)، الذي فرَّ بعد احتلال الإيطاليين لإثيوبيا عام 1936م إلى الصومال الفرنسي، ثم ذهب إلى القدس تحت الانتداب البريطاني هو وعائلته، ثم ذهب بعد ذلك إلى جبل طارق،ومنه واصل رحلته

إلى إنجلترا، حيث عـاش في مدينة باث (1936-1941م). وفي طريق عودته إلى أثيوبيا عاد عن طريق السُّـودان. وحسب رواية جاكسون قـضى الإمبراطـور الطريـد عدة شـهور بالقـصر الـوردي (Pink Palace) في الخرطـوم، ثـم تحرك إلى إثيوبيـا في 21 يناير 1941م في عملية سرية تحت قيادة العقيد سـاندفور، ودخل العاصمة أديس أباباًدخـول الفاتحين، على ظهر حصـان في 5 مايو 1941م، أي بعد خمسـة أعوام من احتلال الإيطاليـين لإثيوبيا. ونورد في هذا التقديم قصة عودة هيلا سـلاسي عـن طريق السُّـودان وإقامتـه السرية في الخرطـوم؛ لأنها مـن القصص التي لم تذكر في الأدبيات السُّـودانية المعاصرة.

وفي ختـام هذا التقديم، لا أخال أنَّ البروفيسـور بدر الدين حامد الهاشمي يحتاج إلى إطراء معرفي، أو شهادة براءة في مجال الترجمة، بـل يكفيـه فخراً أنه قـد ترجمَّ ونشر أكثـر في ثلاثة عـشر مجلداً في سلسـلته المعروفة بالسُّـودان بعيـون غربية، فضلاً عـن الترجمات القائمـة بذاتها، والتي يتجاوز كمَّها الاثنا عشر كتاباً بين رواية أدبية ومؤلف تاريخي. وبترجمة وإصدار «السُّـودانيون المقاتلون» (The Fighting Sudanese)، 1954م، يكون الهاشـمي قد ترجم كتابين وفصـول متعـددة من كتب هنري سيسـل جاكسـون، البالغ عددها سـبعة كتبٍ، وذلك باسـتثناء كتابه "سـن النار: بعض الروايات عن مملكة سـنار القديمـة (Tooth of Fire: Being Account on the Ancient Kingdom of Sennar)، 1912م، والـذي ترجمه الحاج سـالم مصطفى؛ وكتابه "أيامي في السُّـودان" (Sudan Days and Ways)، 1955م، الذي ترجمه السـفير عـوض أحمد الضو؛ وكذلك

كتـاب "قـس عـلى النيل: بعـض الروايات لحيـاة لويلـين هـ. جوين ورسـائله" (Pastor on the Nile-Being Some Account of the Life and Letters of Llewellyn H. Gwynne)، 1960م، الـذي لـم يترجم بعـد. وبهذه الإصـدارات يكون الهاشـمي قد أعاد جاكسـون إلى دائرة الضوء، ووضعه في موضع يليق به بين رصفائه مـن البريطانيـين الذين أصـدروا أعمـال ذائعة الصيت عـن تاريخ السُّـودان وتركيبته الاجتماعية، أمثال السير هارولد ماكمايكل (Sir Harold McMichael)، وأ. جي. أركيل (A.J. Arkell)، ورتشارد هل (Richard Hill)، وإيفانز برتشارد (Evans-Pritchard).

الجزء الأول

الأيـــــام الأولى

الأيام الأولى

وأعز من ذلك الأخوة
التي تربط شجعان العالم بأسره
نيوبولت، سباق الجزيرة
مصلى كلية كليفتون

And dearer yet the brotherhood
That binds the brave of all the earth
Newbolt, The Island Race
Clifton College Chapel

***

السودان هو بلاد محاربين منذ قديم الزمان. وقد بسط السودانيون سيطرتهم على طيبة في مصر من قبل عام 750 قبل الميلاد، ثم انتصروا على مصر بأكملها بعد ذلك بسنوات قليلة.

وعبر العصور كانت شعوب السودان في حالة حروب واقتتال فيما بينها، كما تدل السجلات القليلة المتوفرة. ونقل لنا طرفا من تلك الأحداث بعض من الرحالة الذين كانوا يزورون تلك البلاد النائية بصورة متقطعة. وثبت أن ذلك التقاتل المستمر كان سبب خراب البلاد وسقوط ممالكها. فعلى سبيل المثال غزا إسماعيل باشا السودان في 1820م قادما من مصر، التي كانت يومها جزءً من الخلافة العثمانية. ولم يجد إسماعيل باشا صعوبة كبيرة في هزيمة المعارضة الضعيفة التي واجهته في بعض المناطق من قليل

من القبائل المتشاكسة، خاصة وأن جيشه كان جيد التسليح. وبعد أن دان الأمر للحكم التركي – المصري أذاق الشعب الأمرين بسبب فساد إدارته وقلة كفاءته وقسوته المفرطة. ولما طفح الكيل بالناس، ثاروا عليه.

وفي عام 1881م ظهر ولي صالح اسمه (محمد أحمد) لم يكن لديه كبير شيء سوى سمعته الحسنة كرجل تقي ورع. وبدأ يلتف حوله بعض المريدين والأتباع الذين آمنوا بدعوته من أجل إنهاء حالة البؤس التي كانوا يكابدونها. وأفلحوا في هزيمة جنود الحكم التركي – المصري في كل المعارك التي خاضوها ضده وليس معهم من أسلحة إلا المدي والحراب والسيوف. وكانت أعدادهم تزيد وتزيد مع كل انتصار يحرزونه. وقتلوا أو أسروا 20,000 من الجنود المدربين والمسلحين تسليحا جيدا، وغنموا منهم نحو 21,000 بندقية وتسعة عشر مدفعا. وفي يوم 26 يناير 1885م أفلحوا في إسقاط الخرطوم، عاصمة الحكم التركي – المصري. وقُتل في ذلك اليوم الجنرال غردون، وطُرد الأتراك والمصريين من السودان.

وأرسلت بريطانيا جنودها إلى وادي حلفا لحماية مصر من الغزو، بينما أنصرف سير ايفيلين وود ولورد وليسلي والسير هيربرت كتشنر إلى بناء جيش مصري جديد عوضا عن ذلك الذي حطمه الدراويش.

ولأحد عشر عاما ظل أنصار محمد أحمد وخليفته عبد الله يشكلون تهديدا خطيرا لمصر، وفي أحدى سنوات حكم الخليفة عبد الله قامت دولة المهدية بإرسال جيش بقيادة عبد الرحمن ود النجومي لغزو مصر، غير أنهم أخفقوا في عبور الحدود.

تثبت قصة تلك المحاولة الفاشلة لغزو مصر مقدار إخلاص وتفاني ووفاء قائد من كبار قادة المهدية للدعوة التي آمن بها، وتثبت أيضا شجاعة وإقدام السودانيين الذين تبعوه إلى ساحة تلك المعركة.

لقد كان عبد الرحمن ود النجومي أعظم أمراء الدراويش – فقد كان محاربا شجاعا واستراتيجيا ماهرا وشديد التعصب. وكان هو من خطط للقضاء على جيش هكس باشا، حين قتل أو أسر 10,000 من رجاله. وبعد خمسة عشر شهرا من تلك المعركة (في شيكان. المترجم)، أدى دورا مهما وحاسما في الاستيلاء على الخرطوم ومقتل الجنرال غردون.

لقد كان النجومي شديد الإيمان بصلاح (في الأصل قدسية divinity. المترجم) المهدي وصحة دعوته فانخرط في خدمته وخدمة الخليفة عبد الله من بعده بكل اخلاص وإجادة. وكان أتباعه يبجلونه لزهده واخلاصه وقدراته الفائقة، بينما كان خصومه يحترمونه لشجاعته وشكيمته ومهارته، ويعدونه أفضل في مجال القيادة من الأمير عثمان دقنة، الأكثر شهرة، والذي أكسبته مناوشات الفر والكر التي خاضها ضد البريطانيين والقوات الاستعمارية شهرة سيّئة (notoriety) لعبقريته العسكرية التي لا يمكن تبريرها.

لم تكن ذكرى عثمان دقنة لتبقى بمثل ما بقيت به إلا بسبب شجاعة وإقدام مقاتليه من الهدندوة (الذين خلدتهم قصيدة كيبلنج "فيزي ويزي") عندما حطموا المربع البريطاني في تاماي.

وكان تكليف الخليفة لعبد الرحمن ود النجومي بمهمة غزو مصر هو بمثابة خطوة الخليفةالأولى نحو السيطرة على مكة، ومن ثم بسط سيطرة حكمه على سائر العالم المأهول.

وبدأ ود النجومي مسيرته شمالا من أم درمان في الأيام الأولى من عام 1889م. ولم يغادر مدينته إلا بعد أن أحرق بيته وأقسم ألا يعود إليه إلا إذا أفلح في الاستيلاء على مصر. وبلغ مشارف مدينة وادي حلفا في نهاية يونيو من ذات العام.

وفي الثاني من يوليو بدأ أول صدام لجيش ود النجومي مع الجنود الذين كانوا مكلفين بحراسة الحدود المصرية في "أرقين" التي تبعد عن وادي حلفا مسافة ثلاثة أميال ونصف. وهجم الأنصار، بشجاعتهم المعهودة على عدوهم عديد المرات، غير أن أسلحتهم التي كانت لا تزيد عن الحراب وقليل من البنادق،ولم يكن لها أن تهزم جيشا مدربا قوي التسليح الناري. فتم دحر هجومهم وقتل منهم 900 فردا. وفر أو أسر بعض الذين نجوا من القتل، بينما مات بعضهم في الصحراء بسبب الجروح التي أصابتهم. وكان العدد الكلي لما خسره ود النجومي في تلك المعركة قرابة ألفين من أنصاره.

وغدا موقف الدراويش الآن شديد الحرج. فقد قطعوا مسيرة 600 ميلا من عاصمتهم أم درمان. وكانت وسائل نقلهم في غضون شهور تلك المسيرة تتناقص بوتيرة متسارعة مع زيادة خطوط اتصالاتهم. وكان هؤلاء الأنصار المحاربون (وعددهم يتجاوز 5500، مع 8000 من أفراد عائلاتهم)، وهم في مسيرتهم شمالا، قد قضوا على كل ما معهم من زاد قبل أن يبلغوا مقصدهم، فاضطروا لذبح ما كان معهم من جمال وخيول وحمير، وفقدوا بذلك وسائل النقل التي كانت تتيح لهم العودة لديارهم سالمين. وعندما قربوا من الحدود المصرية، لم يكن معهم من الطعام شيء، وكان عليهم السير لمسافة 200 ميلا أخرى شمالا قبل أن يحصلوا على الطعام في مصر. وكانت تجوب

مياه النيل بمحـاذاة قواتهم قوارب حربية مصريـة مزودة بمدافع، كانت تمنع عن جيش الأنصار الذي يكابد الجوع وصول أي مدد من أي نوع. ولم يبق على أولئك المقاتلين الأنصار إلا أن يأكلوا الأعشـاب وأوراق شجر النخيل الجافة ومسحوق نوى التمر.

ولقلقه وحرصه على حياة مقاتلي الأنصار ومن معهم من العائلات دعـا الـسردار (أي القائد الأعلى للجيش المصري) سـير فرانسـيس قرينفيـل عبد الرحمـن ود النجومي للاستسـلام، وأبان لـه أنه لن يكسـب هذه الحرب أبدا، خاصة وجيشه منقطع في الصحراء يعاني من انعدام الزاد وسوء التسليح. جمع ود النجومي قادة جيشه وقرأ عليهم رسـالة السردار جملةً جملة. لا بد أن ذلك المشـهد كان شـديد الإثـارة. فقد تجمع في تلال تلك البقعـة الجرداء آلاف من الدراويش وهم في زيهم المرقع (علامة الزهد والفقر، وشعار التضحية من أجل المبـادئ التي من أجلها يبذلون أرواحهم) مـع أفراد عائلاتهم الذين عضهم الجوع بنابه، وهم يشعرون بالإحباط واليأس وخيبة الأمل.

وظلت رايات امراء الدراويش ترفرف في وسط حرارة ذلك الصيف الحـارق، تتحدى (بضعف شـديد) ذلـك الجيش المدجج بالأسـلحة الفتاكـة الموجهة نحوهم. وكان بعض مقاتـلي الدراويش يتمنون لو كان بمقدورهـم الفرار من المصير المحتوم الذي كان ينتظرهم، بينما تسرب الشك إلى نفوس بعضهم من صحة الدعوة التي هبوا من أجل نصرتها، وهل هي بالفعل تسـتحق منهـم التضحية بالحياة. غير أن ود النجومـي بقي وحده هادئا مطمئنـا وثابتا على موقفه. وخاطب قواده وأفراد جيشـه بما يفيد أنـه لا أمل في الانتصار، وطلب من كل

مـن تسرب الشـك أو الخوف إلى قلبه أو من يريـد التراجع عن قبوله بدعـوة المهديـة أن يغادر. أخبرهـم بصريح العبارة أنه لا يسـتطيع أن يعدهـم بأي أمل في النصر، غير أنه يعدهم بميتة الشـهداء وحياة مخلـدة في دار النعيم تنتظرهم إن هم بقوا على عهدهم وحربهم ضد عدوهم. ولوح بسـيفه وهو يخبرهم بأنه لن يحيد عن الدعوة المهدية أو يهجر مهمته المقدسـة. وأحيت خطبته الحماسية تلك ما اندثر من أمل ورجاء عند مقاتليه، ولم يرض بالانسـحاب من سـاحة المعركة سوى خمسمائة منهم.

وأرسل ود النجومي رده على رسالة السردار، وجاء في نهاية رده مـا مضمونه التالي: "أما ما ذكرته بخصوص أعداد جيشـك الكبيرة، فهو لا يخيفنا البتة. لا نخاف إلا الله وحده."

وبعـد تلقيـه رد ود النجومي قرر الـسردار قرينفيـل الهجوم. وبالفعـل بدأ الهجوم في الثالث من أغسـطس عام 1889م في منطقة (توشـكي). وكان آخر ما سمعه الدراويش من أميرهم ود النجومي قوله لهم بأن هذا اليوم هو اليوم الذي ينبغي لنا فيه أن نستعد للقاء خالقنا." (جاء في موقع "وزارة الدفاع السـودانية" https://bit.ly/2m1MxfJ أنه ورد في رد النجومي على السردار التالي: "ندعوك للإسـلام ولا تعتمد على قوة جيشك وعتادك، فإن الله سينصر عباده المؤمنين". المترجم)

لا ريـب أن ود النجومـي كان قـد قـاد جيشـه بحنكـة ومهارة عظيمتـين، غـير أن نتيجـة قتالـه كانت محسـومة سـلفا. جرح ود النجومي مرتين أو ثلاثة مرات. ولما تبين له أنه قد خسر المعركة فعلا

حـــاول الفرار على ظهر جمل (لقراءة رواية مغايرة لما أورده الكاتب عن عبــد الرحمن النجومي ومقتله يمكن الاطلاع على ما ورد عنه في موقع «وزارة الدفاع السودانية» المذكور أعلاه. المترجم).

وعند انتهاء المعركة بحث البريطانيون في ساحة القتال عن جرحى الدراويــش ليســاعدوهم، فوجدوا جثــة عبد الرحمــن ود النجومي ملقــاة بجنب الجمل الــذي حمله لآخر مرة، وبالقــرب من جثة أحد أولاده، وكان في الخامسة من العمر. ومن بين كل الآلاف من المقاتلين وعائلاتهم الذين غادروا أم درمان في تلك الحملة قاصدين فتح مصر، نجح 1000 مقاتل و2000 من أفراد عائلاتهم في الفرار من ســاحة المعركة. وكان من ضمن هؤلاء ابن آخر من أبناء ود النجومي عمره لا يتجاوز العام. وتم حجز ذلك الطفل في معسكر البريطانيين وتكليف ممرضة بريطانيــة للعناية به. وفي ذلك قال اللورد كرومر: «من بين كل أبنــاء الأرض ليس بإمكان الا القلة النــادرة جدا أن تلقى مصيرا يتغــير بصــورة كاملة عــن طريق صدفــة محضة مثل ذلــك الطفل. فعوضــا عن أن ينشــأ كارها ومعاديا للمســيحيين في وســط أجواء بَربَريّة في السودان، تولته بالرعاية أيادي راهبات إنجليزيات في أكبر مستشــفيات القاهرة، وأمعــن في تدليله، وكن مخلصــات في العناية به، وعملن بكل تأكيد كخادمات له بأكثر مما كانت ســتفعل النســاء اللواتي كان والده سيقبض عليهن ويسبيهن في وسط أفريقيا.»

لم يكــن ليخطر على بال اللــورد كرومر أن ذلــك الطفل الصغير سيغدو عدوا للبريطانيين الذين أحبوه ونصروه وأغدقوا عليه الرعاية صغيرا،ولما شبَّ عن الطَّوْق أوجدوا له وظيفة في سلاح الفرسان!

***

ورد في مقال بصحيفة «الانتباهة» لعماد الحلاوي التالي عن ابن عبد الرحمن النجومي، واسمه عبد الله:

https://www.sudaress.com/alintibaha/37563

(«... عبـد الله أخـذه الإنجليز بعد معركة توشـكي إلى بريطانيا وقاموا بتعليمه وتدريبه كما قاموا بتنصيره، وشـارك تحت إمرتهم في قـوة دفـاع السـودان عـام (1942م) وعيَّنـه الإنجليـز مأمورًا على كبويتـا، وتـزوَّج مـن بريطانية وأنجـب منها ولـدًا يعمل الآن هنـاك طيارًا، ثم عاد إلى مصر وعاد إلى الإسـلام أكثـر قوَّة وتقوى. وفي مـصر عُيِّن قائـد مقام (كبير اليـاورات) للملك فـاروق، ولمحمد نجيب بعد الثورة حتى يوليو (1952م)، وترقى إلى درجة مسـاعد، وعضـو مجلس إدارة معهد فؤاد الأول لبحوث الصحراء. كان علاّمة في الطيـور وله كتاب بعنوان (الطيـور المصرية) صدر عام 1950م. ولعب اللواء عبد الله النجومي باشـا أدوارًا سياسـيَّة كبرى في تاريخ مصر السياسي خاصة إبان ثورة 23 يوليو. وعندما قدَّم اللواء محمد نجيب اسـتقالته من الجيش، أقنعـه الياور عبد الله النجومي باشـا بسـحبها.وبعدها عمل مديـرًا لحديقة الحيوانـات بالجيزة، وتزوَّج مـن مصرية وولد منها ابنه الوحيد (إبراهيم) الذي يعمل الآن طيارًا بوقاية النباتات.المترجم)

***

وبعد مرور سـت سـنوات فحسـب على تولي السـير ايفيلين وود

منصب سردار للجيش المصري الجديد، أفلح الرجل في غضون ذلك الوقت القصير في إنشاء جيش له قوة عسكرية حديثة ضاربة استطاعت أن تعيد احتلال السودان وتزيل سيطرة دولة الدراويش عن الوجود.

وتم في ذلك الجيش تعيين ثمان كتائب من الفلاحين المصريين، وسبع كتائب من زنوج جنوب السودان (الكتيبة التاسعة إلى الخامسة عشر)، أدت أدوارا عظيمة وحاسمة في الحملة النيلية بين عامي 1896 و1898م.

وليس من أغراض هذا الكتاب الخوض في تفاصيل تلك الحملة النيلية، فقد كفانا ما سطره بتفصيل وإجادة كاملتين السير ونستون تشرشل، وكتاب آخرون. وسأسرد هنا بعض وقائع وأحداث تلك الحملة التي لم تجد لها نصيبا كبيرا من الذيوع والانتشار.

وإن ركزت في سردي على الأعمال البطولية التي قامت بها الكتيبة السودانية الحادية عشر، فليس مرد ذلك أنها كانت أشجع من غيرها، بل لأني شرفت برؤيتها أكثر من غيرها إبان عملي في الإدارة بالسودان، وناقشت مع ضباطها تاريخها العسكري. ويكفي أن نذكر أنه ما من معركة دارت في السودان إلا وكان لهم فيها مشاركة قتالية نشطة، بدءًا من حصار سواكن في 1888م إلى معركة أم درمان في 1898م، وحراسة جبل نيام في عام 1916م. وفر الدراويش من أمام تلك الكتيبة في معارك شملت توشكي وطوكر وجميزة وحفير. غير أنهم أبدوا تميزا خاصة في الحملة النيلية.

تألف جيش كتشنر الذي زحف جنوبا من 35,000 رجلا،

كان ثلثهم مـن البريطانيين، وثلثهم من الســودانيين، والثلث الباقي مـن المصريـين. غير أن عـبء القتـال وقع أكثـر ما وقع عـلى عاتق الجنود البريطانيين والسـودانيين، كما تثبـت ذلك إحصائيات القتلى والجرحـى. ففـي المعارك الرئيسـة في "أبـو حمد" و"أتـبرا" و"أم درمان" قتل من الجنود السـودانيين 74 فـردا، وجرح 498. وقتل مـن الجنود البريطانيين 54 فردا، وجـرح 488. وفي المقابل قتل من الجنود المصريين ستة أفراد، وجرح 61.

وفي معركـة «أتبرا» التي وقعت في أبريل مـن عام 1898م قامت الكتيبة السـودانية الحادية عشر بمسـيرة سريعـة وطويلة إجبارية (Forced March) لم يسـقط فيها رجل أو ولد. وكانت تلك الكتيبة تنتظر خلف الخطوط عندما قامت بعض القوات المتقدمة في التقهقر وهـي واقعة تحـت نيران كثيفة آتية من جهة العـدو. عند ذلك تقدم جنـود الكتيبة الحادية عشر وراياتهـا الملونة ترفرف عاليا، والفرقة الموسيقية العسكرية تعزف أناشيدها الحماسية. تحرك رجال الكتيبة نحو الخط الأمامي واندفعوا نحو زريبة (معسكر) الدراويش وغيروا مجرى المعركة تماما، رغم خسارتهم لكثير من الجند. وكمكافأة على ذلـك النصر، الذي أبدوا فيه شـجاعة منقطعـة النظير، منحهم لورد قرينفيل وسـير كتشـنر طبلين جانبيين / مطوقين (side drums) مـن نوع خـاص، ظل عازفـا الطبـل في الفرقة يضعانهـا بكل فخر على جانبيهمـا في مقدمة الفرقـة. ومنحهم كتشنر نِيْشـاين خاصة، وسـمح للكتيبة بارتداء "الريشـة الحمـراء Red Hackle " كدليل رمزي عـلى بطولتهـم وشـجاعتهم، يرتديها الضبـاط ضمن زيهم

الرسـمي اليومي، بينما يضعها أصحاب الرتب الأخرى في المناسبات الخاصة والعروض والاستعراضات العسكرية.

ومـرة أخـري، في معركـة "أم درمان"، حين بـذل 10,000 من مقاتلي الدراويش بكل شـجاعة أرواحهم، أظهر رجـال تلك الكتيبة تميـزا خاصـا جعل القيادة تختارهـم ليمثلوا القوات السـودانية في القداس التذكاري الذي أقيم للجنرال غردون أمام بقايا مبنى القصر بالخرطوم في الثالث من سبتمبر 1898م. ومن بعد ذلك ظلت الفرقة الموسـيقية العسكرية لتلك الكتيبة تعزف دوماقبل بدء مسيرتها بيتا مـن ترتيلة Abide with me التي كانت أثيرة عند غردون. وفي عام 1924 تـم حل الفرقة، غير أن ذكراها ظلت باقية. ولعل من أشـترى علبـة من "سـجائر عبد الله" سـيلاحظ على غلافها صـورة لجندي مصري وآخر سـوداني. وكان ذلك السوداني يعمل رقيبا (شاويشا) في الكتيبة السـودانية الحادية عشر (لرؤية الصـورة يمكن الضغط على الرابط:

http://www.cigarettespedia.com/index.php/Abdulla_Cigarettes_Specialists_-_03)

المترجم

***

ظلت القوات الحكومية تقاتـل الدراويش حتى بعد مرور أربعة عشر شـهرا عقب معركـة أم درمان. وفي نهاية تلك الشـهور هزمت تلك القوات بقيادة اللـواء وينجت الخليفة عبد الله وقتلته في معركة

(جديـد) في 24/11/1899م. ولم تحدث بعـد ذلك حالات مقاومة منظمة، ولكن وقعت، ولسـنين عديدة، حالات تمرد وقتال في مناطق مختلفة من السـودان. غير أن الحكومة بسطت سـيطرتها تدريجيا على مقاليد الأمور، وأشـاعت الأمن في البلاد. ولا بد أن نذكر أن كثيرا من رجال القبائل كانوا قد استولوا على بنادق من الأتراك والمصريين، ولم يكن من السهل عليهم ترك عادتهم القديمة المحبة للقتال.لم يكن من الميسور قط ضبط الأمن في أوساط أناس يغلب على طبعهم العنف والشـغب والتمرد وظلوا لأجيال يتحاربـون فيما بينهم، ويعتمدون على السيف والحربة لنيل ما يريدونه. وظلت الحكومة تبعث بأعجل مـا تيسر لها بدوريات للحراسـة للمناطق التي يصل لمسـامعها أنها غير مسـتقرة، أو أن شغبا سيحدث فيها، حتى لا تتطور الأحداث إلى عصيـان عام. غير أنه من الملاحـظ أنه ما أن تُنهي تلك المعارك، حتى يقوم من كانوا يحاربوننا بالانضمـام للقوات الحكومية، ويقاتلون من أجلنا في المسـتقبل بنفس الشجاعة التي أظهروها عندما حاربونا في الماضي.

وعندمـا اندلعـت الحرب العالميـة الأولى لم يكـن للبريطانيين في السـودان من نصراء أشـد إخلاصا من أبناء الخليفـة عبد الله، الذي دَالَـتْ دَوْلَتـه على يد كتشـنر، وقتلته قوات وينجـت. لا عجب إن كنا نكن كل الاحترام للسـودانيين لسماحتهم ورحابة صدرهم، ونعجب بشجاعتهم.

لقد كانت ظروف العمل في الخدمة العسكرية شاقة وعسيرة حتى على الذين اعتادوا على العمل تحت الشـمس والحر، خاصة وأنه كان

مفروضا على الجنود السير على الأقدام بمجرد إشعارهم بذلك، وأن يرتحلوا من مكان لآخر بسرعة، حاملين معهم كل ما يحتاجونه. وأذكر حادثة وقعت في عام 1911م حينما ظهر مذنب هالي، وشاع بين الناس يومها أن تلك علامة على انتهاء أيام الحكم البريطاني في البلاد. وفرح بذلك بعض رجال القبائل في منطقة تجاور المنطقة التي كنت أحكمها فرحا غامرا، وأحدثوا بعض الشغب. وأرسل إليّ مدير المديرية طلبا عاجلا لأبعث للمنطقة المهتاجة بقوات لحفظ الأمن، فقمت خلال 72 ساعة بإرسال سرية جنود لإنقاذ الموقف. وللوصول لتلك المنطقة كان على رجال تلك السرية أن يقطعوا مسافة 120 ميلا سيرا على الأقدام على أرض مشبعة بالماء، وأن يعبروا نهرين كبيرين سباحةً.

كان ذلك مثالا لحادثة واحدة من بين كثير من الحوادث في تلك الأيام الباكرة بالسودان الحديث، عندما كنا نتفادى وقوع الكوارث بالإسراع في إيصال العون العسكري. وكانت الحاميات وقتها قليلة ومتباعدة. غير أن مجرد إدراك من يودون إثارة الشغب بأن هنالك قوات مسلحة موجودة، وستصل لتخمد شغبهم – رغم بعدها عنهم – كان كفيلا بتثبيط همة وردع هؤلاء. ومع جنودنا قليلي العدد في هذا البلد الواسع المترامي الأطراف، كانت هنالك شرطة مدنية، مؤلفة من أعداد قليلة من الرجال، أسندت إليهم مهمة حفظ الأمن، وكبح تجارة الرقيق، وإخماد حركات التمرد والعصيان.

وتزخر سجلات ووثائق حكومة السودان بتفاصيل المعارك التي دارت بين النوير والدينكا والبيير (الذين يقطنون على نهر فيفينو

شرق بور. المترجم) والنوبة وقبائل أخرى. ويأسف الكثيرون منا على أنه لم ينشر الكثير عن تلك المعارك القبلية، رغم أنها تقف دليلا ساطعا على صعوبة المواقف التي كان على البريطانيين مواجهتها في أيام حكمهم الباكرة. وكثيرا ما اشعر بأن أجيال الشباب السودانيين لا يدركون مقدار الثمن الذي بذل في الماضي حتى ينعموا الآن بالأمن والرفاهية.



الجزء الثاني

قلاقل في دارفور

قلاقل في دارفور

وأقـول أيضاً إنه لاَ ضَيْرَ من أن تسـقط، فالمعـارك تُخسر بنفس الروح التي تُكسبها

والت ويتمان. أغنية نفسي.

I also say it is good to fall, battles are lost in the same spirit in which they are won.

Walt Whitman, Song of Myself

***

انطلقـت في نهايـة أغسـطس عـام 1921م شـائعات غامضة في أوسـاط رجـال القبائـل حـول مدينة نيـالا بقرب حـدوث قلاقل في المنطقـة. وفي الخامس من سـبتمبر وصلت لأسـماع السـيد/ تنينت ماكنيـل باشـمفتش المديريـة أنبـاء عـن تزعـم الفكي عبـد الله ود السـحيني لقـوة كانت تنـوي مهاجمـة مدينة نيـالا، التـي هي من أقـصى النقاط الإدارية في السـودان، إذ تبعد نحـو 120 ميلا جنوب الفاشر (عاصمـة مديرية دارفور)، ويفصلها عن الأبيض(آخر مدينة تصلها السـكة حديـد في غرب البلاد) منطقة شـبه صحراوية طولها 396 ميـلا. وتبعد الأبيـض عن الخرطوم مسـافة قدرها 428 ميلا. وكانـت دارفـور هـي آخـر المديريـات التـي ضمـت لدولـة الحكم الثنائي(البريطانـي - المـصري)، إذ أن الحكـم الجديد كان قد سـمح لعـلي دينـار بحكم دارفور مقابـل دفعه لجزية رمزية عقب تسـنمه

لسدة الحكم في عام 1898م. إلا أن علي دينار استجاب في عام 1916م لإغراءات ومداهنات الألمان والأتراك وتخلى عن حلفه مع الحكم الثنائي، والذي لم يتردد في الإطاحة بحكمه في حملة قصيرة لكنها ناجزة، ضُمت بعدها دارفور تحت سيطرة دولة الحكم الثنائي بصورة تدريجية. وأثارت تلك السيطرة (رغم أنها كانت طفيفة حتما بسبب الظروف القائمة آنذاك) بعض المشاعر العدائية عند كثير من الدارفوريين الذين ساءهم أن تحرمهم الحكومة من فرص سابقة كانوا يزدادون بسببها ثراءً على حساب جيرانهم. وكان يقطن في نيالا أناس من أعراق مختلفة، لا يجمع بينهم غير كرههم لأي سلطة تفرض عليهم من قبل حكومة مسيحية. ومما زاد الطين بلة وصعب من مهمة الحفاظ على الأمن والنظام هو نقص عدد الموظفين الحكوميين في كل المجالات بنيالا. فقد كان من المتعذر على المفتش البريطاني زيارة كل المناطق البعيدة الواقعة تحت سلطته بالتواتر المطلوب، وكان غيابه عن تلك المناطق البعيدة -كما تبين لاحقا- يشجع البعض، بصورة متزايدة، على القيام بانتهاكات وفظائع. وكان بعض الشيوخ والعمد ممن أوكلت إليهم مهمة تقدير وجمع الضرائب والعوائد يأكلون أموال المواطنين بالباطل. وكان كثير منهم يحذو حذو من سبقهم من المصريين والأتراك في استخدام وسائل غير إنسانية في جمع الضرائب، بل وقاموا بتقييد وضرب بعض زعماء القبائل البارزين وجلدهم بالسياط علنا من أجل ابتزاز مزيدا من الأموال منهم. وكما كان الحال في عهد التركية، كان بعضا من هؤلاء يستغلون بعض نساء القرى التي كانوا يجمعون منها الضرائب. وبهذا تنامت المظالم الاقتصادية والسياسية عند الأهالي واختلطت

بمشـاعر التعصب الدينـي فخلقت مزيجـا خطيرا شـديد الانفجار. وعندما سـمع السـيد/ تنينت ماكنيل باشـمفتش المديرية بأنباء تلك القلاقـل لـم يجد أمامه سـوى خيـارانِ أحلاها مر. فقـد كان يمكن لـه أن يفـترض أن تلك الأنباء كاذبـة أو مبالغ فيها، وألا يفعل شـيئا البتـة وينتظـر إلى أن تتضح صـورة الموقف ويحصل عـلى مزيد من المعلومـات. غير أن ذلك التأخير قد يجعل من فعل أي شيء لاحقا أمراً مسـتحيلا. وكان يمكن أيضا للباشمفتش أن يرسـل طلبا لتعزيزات عسـكرية، بيـد أن ذلـك كان سـيهز الثقـة في سـلطاته الإداريـة إن ثبـت خطل تلك الأنبـاء عن تمرد ذلـك الفكي، لا سـيما وأن الثقة في النظـام الإداري كانت ترتكز عـلى هيبة ومكانة المسـئول البريطاني المنعـزل الوحيـد الذي تسـنده قوة غامضـة على بعد أميـال وأميال. قـرر السـيد/ تنينت ماكنيـل ألا يتسرع في طلب مدد عسـكري حتى يتيقـن من عـدم إمكانية العثـور على حل آخر ممكـن. كان يدرك أن الفكيا(جمـع فكي) ظلوا دوما مصـدر كل القلاقل وحالات التمرد في السـودان، بيـد أن كثيرا من تلـك الحالات لم تكن تسـبب غير إزعاج مؤقت للسلطات ليس له من كبير تأثير أو خطر. فقد كانت طلقة نارية واحـدة من بندقية شرطي تصيب اللحـم كفيلة بأن تثبت بأن طلقات الحكومة النارية لن تسـتحيل ماءً كما كان الفكِي يعد أتباعه، وكانت تلـك الطلقة النارية تنجح دوما في تفريق الجموع. هل سـيصدق هذا السـيناريو في هذه المرة يا تـرى؟ صعب على السـيد/ تنينت ماكنيل أن يبـت في الأمر، فقد كان رجلا مريضا وفي حاجة عاجلة لاسـتراحة طويلة، وكان مسئولا في منطقة تبعد حوالي مائة ميل من أقرب مكان به رجل أبيض، وبذا لم تكن لديه الفرصة لمشاورة أي إنسان من بني

جلدته. ولعل الرجل قد أعتقد بأن مرضه قد يؤثر سلبا على مقدرته على الحكم على الأشياء ويضخم له من المشكلة التي تجابهه. ولم يتضح إلا بعد ذلك التاريخ بكثير أن الفكي عبد الله ود السحيني كان مثالا نموذجيا للقائد المتعصب دينيا والذي كان قد أفلح في إقناع أعداد كبيرة من التبع الجهلاء بأنه مجدد للدين، وبامتلاكه لقدرات هائلة معجزة. وكان بعضا من مريديه يزعمون أنهم قد سمعوا بآذانهم طبول الجنة تدق فوق رأسه، وبأن ثمانية من النسور البيضاء تهبط من السماء وتحرسه من الأمام ومن الخلف حين يقوم بفرش فروته على الأرض، وبأنه إن غرز حربته العريضة في أرض ما، فلن يكون بمقدور كائن من كان أن ينزعها عنها، وبأن له القدرة على تحويل طلقات رصاص الحكومة الناري إلى ماء لا يضر. وكان ذلك الفكي قد قام بعمل استعراض لبعض "معجزاته" أمام بعض أتباعه بعد أن استبدل سرا الرصاص الذي كان محشوا في طلقة نارية وملأها بالماء، وأطلق الرصاص فسال الماء أمام أعين المريدين فازدادوا به إيمانا!

وسمع السيد/ تنينت ماكنيل بقرب حدوث الهجوم على نيالا فأرسل العيون لمحاولة معرفة تحركات الفكي المتمرد ونواياه. وأثبتت الأيام لاحقا بأن أولئك البصاصين لم يكونوا مخلصين أو مجيدين في عملهم. وفي يوم 17 سبتمبر قرر السيد/ تنينت ماكنيل أن الفكي عبد الله عاقد العزم على الهجوم على نيالا فأرسل رسولا إلى الفاشر يحمله رسالة مفادها أن هنالك رجلا اسمه عبد الله قد أعلن الجهاد ضد الحكومة، وأنه يزعم أنه "النبي عيسى"، وأن له 200 من الأتباع، وأكد لمدير المديرية أنه بصدد القبض على ذلك الفكي المتمرد. وتبين فيما بعد أن السيد/ تنينت ماكنيل كان يجهل في الواقع العدد الحقيقي لأتباع ذلك النبي المزعوم.

وبعد ثلاثة أيام على بعثه لتلك الرسالة جاءه من يبلغه بأن نيالا ستهاجم في تلـك الليلـة فأصـدر أوامره لمـن تحته من رجـال الشرطة وحرس السـجون (ولم يكـن عددهم يزيد عـلى الأربعين رجلا) بالاسـتعداد، وصرف للموظفـين السـبعة العاملين في إدارة محطتـه (مثل القاضي وعامـل البناء والحلاق وغيرهم من العاملـين) بنادق صغيرةوذخيرة إضافيـة. وقام أيضا بتزويد التجـار ببنادق عتيقة كانت قد غُنمت من جيش علي دينار في عام 1916م وذلك لحماية ممتلكاتهم في سوق المدينة. وبحلـول السـاعة الثامنة مـن ليل ذلك اليـوم كان الجميـع في أقصى حالات الحذر والترقب والاسـتعداد لهجوم ذلك الفكي المرتقب. ولكن شـيئا من ذلك لم يحدث، ومرت تلك الليلة بسـلام. وفي صبيحة اليوم التالي انشـغل الجميع بحفر خندق حـول المدينة لمنع دخول المتمردين القادمين على ظهور الخيل، وقاموا أيضا بوضع أسـلاك شائكة كثيفة عـلى بعد ثلاثين ياردة من مكاتـب الحكومة حماية وتأمينا لها، إلا أنه سرعان ما تكشـف ضعف تلك التحصينـات عندما قام حصان شرطة هائج بالاندفاع نحو السلك الشائك واختراقه لحظة الانتهاء من نصبه! وظل الجميع في حالة من القلق والتوتر والتوجس لأربعة أيام بلياليها وهـم ينتظـرون الهجوم المحتمـل إلى أن قدم أحد بصـاصي الحكومة وجواسيسـها يوم 24 سـبتمبر وأعلن أن الفكي عبـد الله وجنده على بعد مسـيرة يوم ونصف مـن نيالا، أي أنهم سـيهاجمون نيالا في ليل السادس والعشرين.

وهنا دعنا نترك أمر تلك الحامية الصغيرة المؤلفة من نحو خمسين رجلا تنتظر هجوما كاسـحا من جيش قدره بعضهم من فرط القلق والتخـوف والرعب بعـشرة آلاف مقاتل متمـرد، ولنذهب لمعرفة ما

حدث للرسل الذين بعث بهم السيد/ تنينت ماكنيل إلى الفاشر لإبلاغ المسئولين هنالك بأنباء ذلك الغزو المحتمل.

***

في 17 سبتمبر(سنة 1921م. المترجم) غادر المندوب الأول الذي بعثه مفتش نيالا إلى الفاشر مدينته حاملا أنباء التمرد، وقطع المسافة بين نيالا والفاشر والبالغة 120 ميلا في المدة المعتادة وهي خمسة أيام. وعلى الرغم من أن السيد ماكنيل مفتش نيالا لم يطلب عونا عسكريا، إلا أن السيد نكولوس نائب مدير مديرية دارفور أحس بأن الأخبار الواردة من نيالا خطيرة بما فيه الكفاية وأن عليه إرسال تعزيزات عسكرية لنيالا. وعلى الفور أمر بأن تغادر الفاشر قافلة مكونة من أربعة وستين جنديا من فيلق عرب الغرب (Western Arab Corps) عند الساعة الثالثة من صباح يوم 23 سبتمبر، وأعطيت لها أوامر صارمة بأن تكون في نيالا في أو قبل يوم 28 سبتمبر. وتصادف أن كان الضابطان البريطانيان الوحيدان في الفاشر مريضين فتولى القيادة ضابط سوداني هو النقيب بلال أفندي رزق، في رفقة ضابط سوداني آخر هو ملازم ثاني سعد أفندي عمر كنائب له.

وفي غضون الأيام القليلة التالية بعث السيد ماكنيل من نيالا بخمس رسائل إضافية وصلت إحداها للفاشر في يومين فقط. وكان واضحا أن السيد ماكنيل كان في حالة كرب شديد وخطر عظيم. فقد جاء في رسالته ما يلي: "لقد حصنت مباني المركز ونصبت أسلاكا شائكة حولها. وإلى الآن لم أتبين حقيقة الفكي السحيني أو أتلقى أي معلومات عنه. يبدو الأمر غريبا الآن، وأخشى أن تكون هنالك مؤامرة شاملة، وأن الأهالي بالمدينة والذين يدعون أنهم سيحاربون بكل ما

لديهـم من قوة على علم مسـبق بهـذه المؤامرة ... لـدي الآن خطاب بعـث به إلي الناظـر أبو الحميرا مـع مندوبين يفيد بـأن لهذا الفكي عدد كبير من الأتباع، وسمعت من المندوبين أن للرجل نحو ثمانمائة أو تسـعمائة مـن الجنود. ولدي شـعور عميق بأن هـؤلاء المندوبين مـن الخونة، بيد أني أصـدق تقديرهما لعدد أتباع الفكي. حسـنٌ... إن كان عـدد هؤلاء كما زعم هذان الرسـولان فسـوف تكون أمامنا معركة حامية الوطيس. إن سـمعة الدارفوريـين أمام نيران البنادق ليسـت حسـنة، وسـنذيقهم إياها نارا لهبا. وليس أمامهم من سبيل غير إضرام أسقف بيوت المركز، ولكننا سنصمد حتى النهاية... آسف جدا لأنني أشـعر الآن بالاكتئاب، ولكن يجب أن لا تقلقوا علينا، وأن تدركوا أن كل فرد منا هنا سـيفعل أقصى ما في وسعه.... وإن بعثتم لنا بتعزيزات فسـتجري الأمـور على ما يرام.“ وبدأت فرقة المشـاة المحمولة سـيرها ببطء نسبي، وقبل أن تقطع مسـافة طويلة قابلت أحد رسـل السـيد ماكنيل وهو يحمل للمسـئولين في الفاشر رسـالة مكتوبة باللغة الإنجليزية لم يسـتطع أحد قـراءة كلمة واحدة منها. ولكـن خمن النقيب بلال أفندي رزق، وبعـد أن رأى بعض الكلمات مكتوبـة بالقلم الأحمر على ظـرف الخطاب، أن الأمر جد خطير فجذ في السير. وعند منتصف الليل، وبعد أن كان الجنود قد ساروا ثماني سـاعات، توقفوا لأخذ اسـتراحة قصـيرة، ولكن سرعـان ما جاءهم مندوب يحمل رسـالة إلى النقيب بلال أفنـدي رزق تنبئه بأن الحالة في نيـالا حرجة جـدا، وأن عليه أن يصلها ليلة الأحـد أو قبلها. وهب الجنـود من فورهم عقب سـماعهم لفحـوى تلك الرسـالة لمواصلة مسـيرتهم القاصدة نيالا دون توقف ولم يضيعـوا دقيقة واحدة إلا

لتناول لقيمات، ولإطعام خيولهم وسقياها. وفي العاشرة من مساء يوم السبت وصلت فرقة الجنود إلى منواشي وحينها لم تعد البغال التي كانت تحمل المؤن قادرة على مواصلة السير، ولم يكن هنالك من بد من إنزال ما عليها من أثقال، ووضعت على قليل من تلك البغال الذخيرة وملابس الضباط. وواصل بعد ذلك الجند مسيرتهم وهم يرددون الأهازيج الحماسية في روح معنوية عالية وفي شوق عارم لخوض المعركة المنتظرة. وعند الثالثة صباحا من يوم الأحد لاحت لهم من بعيد معالم نيالا، والتي وصلوها بعد 48 ساعة من تحركهم من الفاشر، ودون أي خسارة في الرجال أو الخيول. وفي الفاشر، وبعد مغادرة تلك الفرقة لها بساعات قليلة آب الرائد شون (وهو من الفيلق البيطري الملكي) إلى مطعم الضباط بعد يوم طويل قضاه في صيد البقر الوحشي. وعندما سمع بأنباء القلاقل في نيالا تطوع من فوره للذهاب لنيالا، حيث أنه كان قد وعد زميلا له بزيارة السيد ماكنيل في نيالا في أقرب فرصة تتاح له. وكان الرائد شون يدرك مقدار الأخطار التي قد يتعرض لها في نيالا، بيد أنه لم يلق لها بالا وقام بتوديع الرقيب الذي يعمل معه وهو يقول: "من الممكن أن لا أعود ثانية... فلا تبتئس!" وبدأ الرائد شون رحلته في رفقة رجل شرطة وخادمين عند منتصف الليل، وقطع في اثنين وعشرين ساعة مسافة قدرها اثنين وسبعين ميلا قبل أن تنهار الجمال التي كانت تحمل الأمتعة. عندها أركب شون خادميه على جمل واحد، ومضى مواصلا الرحلة الطويلة إلى أن انهارت قوى حصان رجل الشرطة الذي كان يرافقه، وبدأ حصانه هو في العرج. لم يثنه كل ذلك فمضى في سيره مشيا

بالأقدام تحت حر قائظ حتى وصل نيالا قبيل الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين 26 سبتمبر بعد رحلة عسيرة استمرت دون انقطاع ستين ساعة كاملة. دلف إلى المدينة من الناحية الشمالية الشرقية فوجدها مهجورة خاوية على عروشها، إلا أنه وجد على الأرض بعض قصاصات من أوراق مكتوب عليها "لا تخافوا... هذه التعويذة (البخرات) ستحيل رصاص الحكومة إلى ماء" مما أكد له أن العدو كان قد حل بهذه المنطقة. سار شون نحو مبنى المركز حيث وجد السيد ماكنيل، وأفراد فرقة المشاة المحمولة ورجال الشرطة وبعض الكتبة والتجار، وكلهم في حالة من اليقظة والحذر والاستعداد لصد الهجوم المرتقب.

***

تقع نيالا على الخط الذي يفصل شمال السودان القاحل عن جنوبه الوافر الخضرة. وتعد تربتها الرملية الحصبائية امتدادا للظروف المناخية التي سادت المنطقة، إلا أن وجود أشجار الأكاشيا الصغيرة ومجموعات أشجار الدوم والتبلدي الضخمة تبين أن المياه الجوفية ليست غؤوراً تحت الأرض، وعادة ما تهطل في فصل الصيف أمطار تكفي لجني محصول وافر من الذرة والدخن والسمسم يسد حاجة سكان لا يقومون بكثير من الأنشطة البدينة. وعلى بعد مائة وألف ياردة إلى الجنوب من مبنى المركز يوجد خور لا تجري فيه المياه إلا عقب هطول أمطار غزيرة، بينما تحيط بالمكان من جهتي الغرب والجنوب أشجار اللعوت الكثيفة. وأما من جهة الشرق فتوجد مساحة خالية مفتوحة ليس فيها غير بعض قطاطي الأهالي وشجرة تبلدي ضخمة (ستبين لاحقا أهميتها في المعركة التي

دارت بالمكان). وإلى الشــمال يقع السوق، والذي بعث له ملازم ثاني ســعد أفندي عمر مع خمســة عشر من الرجال من أفراد فرقة المشاة المحمولــة. قد يبدو للوهلة الأولى أن تشــتيت قوة صغيرة كهذه ليس مــن الحكمة في شيء، ولكن – وكما أثبتــت الأحداث لاحقا- فقد أنقذ ذلــك التحرك الموقف في ذلك اليوم. ولم تكن لنيالا في أيام التمرد تلك أي نــوع من الدفاعات، إذ لم تكــن في أي مبنى فيها حلقات تحصين، وكانت أســقفها من القش اليابس والذي يسهل اضرام النار فيه. ولا يوجد في الســودان قاطبة إلا فيما نــدر أي مبنى يمكن أن نطلق عليه بحق اســم "قلعة"، وحتى عند وجــود هذه "القلعة" فهي في حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون زريبة من نبات شوكي يحيط بمعسكر حربي. وكانت سياسة الحكومة تعتمد على الدخول المسالم (الناعم) لضابط أو موظف مدني يطوف مع رجل أو رجلين من الجيش أو الشرطة. ولم تكن القوة العسكرية تســتخدم إلا عندما تثور قبيلة جامحة(wild) وتتحدى السلطات أو تغير على جيرانها وتنهب أبقارها وعبيدها كما كان يفعــل كثيرا منهم في الأيــام الخوالي. كانت نيــالا مدينة تصعب السيطرة عليها، إذ لم يكن فيها ما يعرف عند العسكريين بـ "ساحة رمايــة field of fire ". فعنــد الخــور في جهة الجنــوب يمكن لجند العدو أن يحتشدوا دون أن نراهم، ولا يمكن لنا رؤيتهم وهم على بعد سبعمائة ياردة إلا بعد أن يعبروا بسلام التلال الرملية. ولا يمكن لمن وضعناهم من جنود الاســتطلاع على ســقف السجن أن يعلموا شيئا عن تحركات مقاتلي العدو إلا بعد أن يكونوا على بعد أربعمائة ياردة فقــط منــا. وبعد عشرين دقيقة مــن وصول الرائد شــون ثار النقع وغطت موجة عاتية من الغبار المكان معلنة عن بدء المعركة المنتظرة،

وتعالت صيحات الدراويش وطبولهم وهم يرددون: "الدين منصور ... منصور الدين...نجاهد في سبيل الله"، ويندفعون للقاء جنود الحكومة. وكان ملازم ثاني سعد أفندي عمر مع خمسة عشر من جنوده يحرسون منطقة السوق في شمال شرق المدينة، بينما تمركز في جهة الغرب نحو ثلاثمائة وأربعمائة جندي من "قوات صديقة" كانوا (وباستثناء قوات سلطان كبكبيه) لا يعتمد عليهم. وكان السيد ماكنيل قد صرف لهؤلاء الجند شارات حمراء ليميزهم عن قوات الفكي المهاجمة، إلا أن معظمهم أطلق ساقيه للريح لحظة المعركة، بينما نزع آخرون شاراتهم الحمراء وانضموا للمتمردين. وفي مبنى المركز نفسه بقي السيد ماكنيل والرائد شون مع أربعين من المدنيين وحرس السجون بقيادة الملازم أول حسن محمد الزين مسلحين بالبنادق الصغيرة، وخمسين من رجال فيلق عرب الغرب بقيادة النقيب بلال أفندي رزق. وكان المتمردون يحملون الحراب والسيوف العريضة ويتقدمون على ثلاثة محاور تحت رايات تسع نُسج أو كُتب على كل منها آيات قرآنية، بينما أتى الفكي عبد الله السحيني مع مائتين إلى ثلاثمائة من الخيالة وتقدموا شرقا حتى يقطعوا الطريق على كل من يضطر للانسحاب والتراجع للفاشر. وتقدم بعض المتمردين شمالا نحو قطاطي الأهالي فأضرموا فيها النيران. وفي هذه العملية فقد المتمردون المئات من رجالهم، وكانت خسائرهم ستكون أفدح لولا خشية ملازم ثاني سعد أفندي عمر من أن تصيب نيرانه بالخطأ من هم بالمركز. كذلك أفلح سلطان كبكبيه في صد المعتدين من جهة الغرب. ولكن كانت الكثرة هي الغالبة فتدفق المتمردون عبر الأسلاك الشائكة واستولوا في أقل من عشرة دقائق على

المركز، وقتل في ذلك الهجوم الرائد شـون وثلة من رجال فيلق عرب الغرب. وقتلْ كذلك السـيد ماكنيل وهو يحاول التسلل للإسطبل مع بعض رجاله من أجل الانسحاب ومعاودة الكرة مع العدو في يوم آخر. وعند السـاعة التاسعة إلا ربعا صباحا كان الموقف كالتالي: كان نحو خمسـين من الدراويش يعيثون فسادا في المركز ويسلبون ويحرقون مباني الحكومـة، (! المترجم) وكانت قطاطي الأهـالي تحترق، بينما تمركز الفكي عبد الله تحت شجرة التبلدي الضخمة في شرق المدينة. وبقـي ملازم ثاني سـعد أفندي عمـر في منطقة السـوق مع رجاله الخمسـة عشر (والذين لم يهاجمهم المتمردون) دون ذخيرة بعد أن اسـتنفدت بالكامل. وكان بقاؤهم في تلك المنطقة يعني الموت المحقق فقرر الرجل أن يغامر بمحاولة اسـتعادة مبنـى المركز، والذي كان جزء منه يحترق ربما بسـبب نيران كان حراس السجن قد اشعلوها لطبخ طعامهم وذلك قبيل هجوم المتمردين.

وهكذا انتهى الفصل الأول من معركة نيالا.

****

وعند تقدم الملازم ثاني سعد أفندي عمر نحو المركز فر المتمردون وهم يسابقون الريح محاولين النجاة من زخات طلقات البنادق التي كان يقذفهم بها رجال الشرطة وحراس السجون (الذين كان بعضهم مصابا بجراح خطيرة). واتخذ النقيب بلال رزق والملازم ثاني سعد أفنـدي عمر وجندهما (الذين بلغ عددهم الآن سـتة وأربعين رجلا) وعـدد آخر من الموظفين موقفا دفاعيـا في جهة الشرق على بعد مائة ياردة من مباني الحكومة، بينما كانت طبول نقارة الفكي السحيني تدق منادية جنده للتجمع حوله تحت شجرة التبلدي. وصدم الملازم

ثاني سـعد أفندي عمر عند اسـترداده للمركز عندما وجد أن ما كان عنـد فيلقه من الذخيرة قد أشرف عـلى النفاد، بيد أنه سر أيما سرور عندمـا أخبره ابـن لأحد الكتيبـة أن بالمخزن نحو أحد عـشر ألفا من الطلقات النارية. وسـاد الصمت مسرح المعركة لدقائق معدودة، ولم يكـن الملازم ثاني سـعد أفندي عمر يريد أن يتيح للفكي السـحيني ودراويشـه فرصـة إعادة تنظيـم قواتهم ففتح عليهـم نيرانا كثيفة لاسـتفزازهم كي يهاجموا قواته. وبالفعل فعلـوا ما أراد لهم فعله، وكانـت قوة نيرانهم بسـبب عددهم الضخم كبـيرة جدا. وبدأت الآن أكثر حوادث تلك المعركة بطولة، إذ شـاركت زوجات رجال الشرطة وحراس السـجن الرجـال في القتال. ومع أصـوات الزغاريد العالية الحـادة كن يقاتلن ويحثـن الرجال على الصمـود، ويجلبن الذخيرة والماء من حوض كان على بعد خمسـين ياردة جنوب سـور الأسلاك الشـائكة المحيطة بالمركز. ولم يحفظ لنا التاريخ غير اسماء قليل من هـؤلاء البطلات (بطلات من منظور الكاتـب بالطبع. المترجم) بكل، وهـن: حمدة زريقة ومريم أم ديرا. وفي تلك المعركة اسـتولت مريم عـلى صندوق للذخيرة وحاولت فتحه برميه على الأرض مررا، إلى أن عثـرت على فأس حطمت به الصنـدوق. وفي قصة أخرى من قصص بطولات النساء قامت حمدة زريقة بمساعدة رجل اسمه زيتون كان يحرس نساء مدينته بسـيف وحيد. جمعت تلك المرأة عددا كبيرا من الحـراب، وظلت تقدم للرجل تلك الحراب واحدة بعد أخرى ليقذفها في وجـوه المهاجمين. وكذلك أبدت شـجاعة فائقـة عندما تصدت لمن سرق متاع سـيدها وناقته وحماره، وجرت خلفه وأفلحت في إجباره على التخلي عن ما سرقـه! ولم تكن هنالك لحظة من لحظات المعركة

لم تشارك فيها النســاء بجهد ما. وعندما كانت البنادق تصبح حارة لا يمكن مسها، كن يجلبن الماء في جرار ويقمن بتفريغها علي البنادق حتى تبرد. ورغم صمود المدافعين، فقد ظل المتمردون يتقدمون رغم خســارتهم لأرواح بعــض منهم مع كل ياردة يكســبونها، ولكن بدا تقــدم المتمردين برغم كثافة النيران المصوبة تجاههم وكأنه تصديق لنبوءة الفكي السحيني بأن رصاص الحكومة سيستحيل ماءً. ومضت المعركة تزداد أوارا، ومع مرور الدقائق والساعات أخذت ذخيرة جند الحكومــة في النفاد، حتى حدث فجأة ما قلب موازين القوى، وكانت تلــك من اللحظــات العابرة والتــي كثيرا ما غيرت نتيجــة الحرب في كثير من أرجاء العالم عبر تاريخه. شــاهد أحد جنود الحكومة الفكي الســحيني مــن على بعد مائة وخمســين ياردة في رفقــة حامل الراية وضــارب النقارة ونافــخ البوق (البروجي). أطلــق الجندي طلقتين ناريتــينْ على ضارب النقــارة والبروجي فصمتــا وإلى الأبد فتزعزع المهاجمــون لهنيهة إلا أنهم اســتفاقوا بعيد تلك الصدمة واســتأنفوا الاندفاع. وانتهز الملازم ثاني ســعد أفندي عمر الســانحة وأمر أحد رقبائه المجيدين بالتصويب على الفكي الســحيني وحصانه، وما هي إلا لحظات وقد هوَى الفكي جريحا من على فرســه، الذي أصيب هو الآخر في مقتل. وجَم المهاجمون عندما رأوا رأي العين زعيمهم مجندلا على الأرض، فلم يكن الرجل بالنســبة لهم قائدا عسكريا فحسب، بل كان رجلا ذا قدرات غير طبيعية نجح باستغلالها في غسيل أدمغتهم وإيهامهــم بأنــه النبي عيسى. وبســقوطه ســقطت هممهم وانحسر هجومهــم. ولم يبق أمــام المتمردين إلا أن ينســحبوا ليتبعهم جنود قوات سلطان كبكبيا الصديقة، ويمطرونهم زخات من نيران طلقات

البنادق التي ورثها هؤلاء من رجال الشرطة الذين سقطوا صرعى. وعند العصر وارت قوات الحكومة جثث قتلاها الثرى، وظل رجال الحامية المنهكون واقفين وسط أكوام قتلى المتمردين وجرحاهم وهم في ضيق من أنينهم وتأوهم، يحرسون المركز ويترقبون هجوما جديدا من المتمردين لم يقع أبدا (لم يذكر المؤلف ما فُعل بمن قتل أو جرح من أتباع الفكي السحيني. المترجم.) وكانت فرقة المشاة المحمولة قد سارت في غضون الخمسة وسبعين ساعة الأخيرة نحو عشرين ومائة ميلا، وقضت ليلة كاملة دون نوم أو راحة وهي في أقصى درجات الاستعداد، وخاضت معركتين شرستين، ومع ذلك فقد توجب عليهم مكابدة ليلة أخرى ملؤها السهد والترقب. ولم يكن حال المدنيين الذين كتب عليهم القتال بأحسن حالا من العسكريين، فقد كانوا قد قضوا الأسبوع الماضي كله في كرب وضيق وتحسب. ونفخ جندي حكومي بوقه ليعلن للناس أن المركز ما زال في يد الحامية، وأن النصر كان حليف الحكومة.

***

لم يعرف العدد الحقيقي لمن قتل من أتباع الفكي السحيني في تلك المعركة، إلا أن حقيقة أن ستة عشر الفا من الطلقات السنارية قد صُبت نيرانها عليهم تكفي للتدليل على أن عدد القتلى لا بد أن يكون كبيرا. ولم يبق من الناجين من أُتُون تلك المعركة كثير من الرجال ليحكوا تفاصيل ما حدث وكم كان عددهم. غير أن شهادة أحد سجناء سجن نيالا واسمه الغالي تاج الدين (قد ثبت فيما بعد أنه كان قد أُتهم زورا وبهتانا بخيانة الأمانة وأدين بها) قد تلقي بعض الضوء على ما حدث في غضون ساعات ذلك الهجوم والذي كان السجين يراقبه من باب

السجن المصنوع من الأسلاك. ذكر ذلك السجين أن عدد الدراويش الذين هاجموا المركز يساوي تقريبا ضعف عدد أفراد قبيلته عندما يخرجون في استعراض عسكري،مما قد يعني أن عدد المهاجمين كان يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف رجل. ولكن لا ينبغي افتراض أن كل هؤلاء كانوا مشتركين فعليا في المعركة، فمعلوم أن بعضهم كان قد وضع كقوة احتياطية في الخور. ويعني هذا أيضا أن نسبة عدد جنود الفكي الحسيني إلى عدد جنود الحكومة ومن معها كان أربعين إلى واحد في الهجوم الأول، وربما ثمانين إلى واحد فيما تلاه من هجوم. لقدانتصرت القوات الحكومية حقا، إلا أنه كان انتصارا مأساوي الكلفة. فقد قتل في المعركة الرائد شون والسيد ماكنيل مع أربعة من الكتبة. وقتل سبعة عشر من فرقة المشاة المحمولة، وكان عدد أفرادها خمسة وستين جنديا. وقتل نصف عدد رجال الشرطة الأربعين. وبالجملة يمكن القول بأن نصف عدد المدافعين قد قتل في تلك المعركة، وكان عدد القتلى يساوي ضعف عدد الجرحى مما يشير إلى ضراوة المعركة وإصرار المحاربين من الجانبين على انتزاع النصر. وتم فيما بعد منح قواد المعركة مثل بلال رزق وحسن محمد الزين نيشان الخدمة الممتازة، بينما نال الضابط سعد عمر وسام "الصليب العسكري"، ومنح الآخرون ما يستحقونه من تكريم نظير ايقافهم لتمرد كان من الممكن أن يقود لو كتب له النجاح إلى تمرد واسع الانتشار. وبالفعل كانت قد سرت في بعض مناطق كردفان ودارفور إشاعات عن هزيمة الحكومة شجعت قيام ثلاث حوادث محدودة للتمرد، إلا أن الحكومة قامت، وبسرعة، بإخماد تلك الحركات في مهدها فلم تقم لها قائمة. لم تنس الحكومة دور النساء اللواتي شاركن في تلك المعركة، فتم منحهن من أبقار كانت الحكومة قد

صادرتها من المتمردين الذين ساهمت أولئك النسوة في دحرهم. وبذا تم تأمين أمر معاشهن في مستقبل الأيام.

***

من الأحداث الغريبة في تلك الأيام قصة مندوب كان قد أُرسل للفاشر فور انتهاء المعركة وحُمل صندوقا مغلقا به قائمة بأسماء من قتلوا أو جرحوا في المعارك خشية أن تصل لعاصمة المديرية أنباء كاذبة واشاعات مغرضة عن أعداد قتلى وجرحى المعركة. ولكن كان ذلك جهدا ضائعا إذ إن أحد خدم السيد ماكنيل كان قد انسل خلسة من نيالا مع أول اشارة لبدء المعركة وهرب للفاشر التي تبعد مائة وعشرين ميلا يسابق الريح فوصلها في أربعين ساعة فقط، وهناك أشاع أخبارا وأرقاما كاذبة عن حصاد تلك المعركة. وكانت حكاية ذلك الرجل وجبنه مصدرا للتندر والأغاني السفيهة البذيئة، التي عاشت بعد مماته لسنوات وسنوات، وظلت متداولة حتى بعد أن طمر النسيان اسم ذلك الخادم. وظل الناس لعهد طويل يتداولون في جلسات سمرهم المسائية قصص تلك المعركة ويتحدثون عن شجاعة من شاركوا فيها وعن من قاتلوا ببسالة رغم جروحهم النازفة حتى نفدت ذخيرتهم، ويحكون حكاية الغالي تاج الدين، ذلك السجين البريء، والذي جلبت له زوجه سيفا له مقبض فضي منع به من أراد من المسجونين الهرب والالتحاق بجنود الفكي السحيني، وهو يصيح فيهم: "الدين منصور". وبقي الناس يذكرون حامد طمبل، ذلك الصبي الغض الذي كان أحد حراس خيول المركز، والذي قتل بمفرده اثني عشر من جنود الأعداء، ولم يفقد حصانا واحدا مما كان يحرسه. أما حارس السجن العريف موسى رحمة فقد أبى بشمم أن تنتزع من فخذه اليمنى، إلا بعد

انتهاء القتال، حربةُ من النوع الذي يشابه صنارة صيد السمك، تهتك الجسـد عند دخولها وعند إخراجها أيضا. وطلب الرجل من رفيق له أن يكـسر رمـح الحربة ثم ربط فخذه بلفافـة قماش ومضي يزحف على مؤخرته مستندا على يده اليمنى وساقه اليسرى حتى وصل خط اطلاق النار على بعد ثلاثين ياردة. كانت تلك بعض لمحات لصور من البطولة والبسـالة التي سجلتها ذاكرة من شـهدوا تلك الموقعة، ولا ريـب أن هنالـك ما يماثلها أو يفوقها من صـور بديعة قُبرت مع من فقدوا أرواحهم وهم يقاومون ذلك التمرد.

***

طافـت بخاطري ذكـرى تلك المعركـة وأنا في زيـارة لمدينة أبي حمـد بمديريـة بربر حـين طلبت زيارة قبـور الجنود السـودانيين والبريطانيين الذين قتلوا في المعركة التي دارت في السابع من أغسطس مـن عام 1897م أثناء حملـة النيل. وكما نبه من قبلي السـير رينيل روود (شـاعر ودبلومـاسي وبرلماني بريطاني شـهير. المترجم) فقد نبهت أنا أيضا إلى ضرورة أن تكون زيارتي لتلك القبور في النهار، إذ إنه (وكما يعتقد بعض الأهالي) ما أن يرخي الليل سدوله فإن الجنود السـودانيين الأحد والعشرين يقومون على حراسـة قبري الضابطين البريطانيين الرائد هـ. م. سيدني والملازم أي. فيتزكلانس المدفونين بقربهـم ويطلقون النار على كل من يقترب من المقبرة. وأثنى السـير رينيل على أولئك السودانيين ثناءً مؤثرالشدة ولائهم وإخلاصهم، أو كما قال: «كانوا شديدو الولاء في الموت كما كانوا في الحياة»

(ومدحهم الرجـل بقصيدة طويلة، أوردها المؤلف كاملة. ولم نر ضرورة في ترجمتها هنا. المترجم)

الجزء الثالث

الحربان العالميتان

الحربان العالميتان

Unshaken, unseduced, unterrified,
His loyalty he kept, his love, his zeal.
Milton, Paradise Lost

حافظ على ولائه وحبه وحماسته
ثابتة مُطْمَئِنّة وعصية على الإغواء
ميلتون. الفردوس المفقود

***

كان قليـل فقط من السـودانيين يدركون أن بلادهم ليسـت، ولم تكن في يوم من الأيام، جزءا من الإمبراطورية البريطانية، وكان عدد من يلقي بالا لذلك أقل بالتأكيد. كان أكبر همهم هو العيش بلا خوف، وممارسة شعائر دينهم دون تدخل من أحد، وأن يحتفظوا لأنفسهم بحصـاد جهدهم في الزراعة وغيرها بعيدا عن أيدي السُرّاق وجامعي الضرائب الظَلَمة. وليس بمقدورهم نسـيان تلك الأيام التعيسة التي سـالت فيها الدماء، وفشـا الابتـزاز، وكثرت فيها المجاعـات. كانوا ممتنـين للبريطانيـين للرفاهية التـي ينعمون بها، والأمـن الذي عم حياتهم الآن.

وكان اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام 1914م هو أول إشـارة لأكثر مشاعر الولاء والإخلاص والود أثرا تجاه البريطانيين من العرب والسـودانيين على حد سـواء – وسـيغدو الأمر أكثر وضوحا عندما تتذكر أن سلطان تركيا (خليفة المسلمين) كان قد أعلنها حربا مقدسة

ضد المسيحيين. غير أن ذلك الإعلان، وما أعقبه من فيوض الحرب الدعائية لم يترك أثرا على ملايين المحمديين في السودان. فقد انهالت مئات الخطابات والبرقيات على البريطانيين من كل أنحاء السودان، عبر فيها مرسلوها عن تأييدهم وتعاطفهم للبريطانيين، وعرضوا المساعدة وتقديم ما عندهم من مال لصالح المجهود الحربي بالبلاد. أتت تلك الرسائل والبرقيات من الزعماء الدينين ومن زعماء القبائل والقضاة وأئمة المساجد والمزارعين والتجار والكتبة السودانيين. وتوالت العروض من السودانيين للقتال بالإنابة عن البريطانيين.

كتب أحد سلاطين الجنوبيين المهمين في رسالته: «لقد جلب البريطانيون الحبوب من الهند لإنقاذ السودان من المجاعة. وأنا على استعداد لقتال الأتراك أو أي أشخاص آخرين من أجل الحفاظ على مثل تلك الحكومة، إن هي أرادت مني ذلك. ويشاركني في هذا الموقف كل السكان. وسأتقدمهم بنفسي لكل معركة يطلب مني المشاركة فيها.»

وأرسل زعيم قبيلة كبيرة في كردفان رسالة جاء فيها: «سنقتل إلى آخر رجل فينا في خدمة حكومتنا الحالية. ونحن على استعداد لبذل آخر قرش من أموالنا، وآخر أنفاسنا للدفاع عنها وصد أعداءها، ومعارضة من يعارضها.»

وكان هنالك ما هو أكثر إثارة من تلك الرسائل المؤيدة. فقد أرسل ناظر الهدندوة – أولئك الفيزي ويزي الذي كانوا – وإلى وقت قريب – يقاتلوننا بشراسة، برقية جاء فيها: «أسفنا لسماعنا عن اندلاع الحرب بين إمبراطوريتنا – بريطانيا العظمى – وتركيا. ونحن، بالإنابة عن قبيلتنا، الهدندوة، نود أن نعبر لكم عن ولائنا القوي واخلاصنا الشديد لحكومتنا، وإمبراطوريتنا، بريطانيا العظمى.

نحـن معهـا، قلبـا وروحـا، في كل الأحـوال وتحـت كل الظروف. وسـنضحي– كما يمليه علينا الواجب - بأنفسنا،وكل ما نملك، وكل ما يمكن لنا تقديمه من أجل نصرتها لتظفر بالنصر.»

أذكـر جيدا أنه في يوم من أيـام نوفمبر 1914م كنت أقوم بجولة في الباديـة على ظهور الجمال ليلا (حتى أحميها من حر النهار)، وفي حـوالي الثانية صباحا قابلـت ثُلّةمن كبار شـيوخ المنطقة مع بعض أتباعهـم. كانـوا يحملون حرابهـم ويرتـدون ملابسـهم التقليدية الخفيفة المصنوعة من القطن. سـلمت عليهم وبقيت معهم لأحادثهم لدقائق. سـألتهم إلى أين هم ذاهبون. قال كبيرهم: «لقد سـمعنا بأن هنالك حربا في أوروبا، وأن الإنجليز يشـاركون فيها. لذا فنحن الآن في طريقنا إليك للمسـاعدة في معاركك». أحسست بأني سأكون جلفا وخشنا إن رفضت عرضهم الكريم هذا. وزاد من ذلك الشعور أنه من بين المتطوعين بعض زعماء قبيلة البطاحين، الذين أوقعت عليهم قبل شهور قليلة فقط عقوبات قاسية على سرقتهم لأبقار آخرين.

وجُمعت لاحقا كل تلك الرسائل والبرقيات في كتيب صغير، يعد الآن وثيقة ذات قيمة عالية لمن أحتفظ منا به، وتذكار عزيز لأيام خلت.

***

جـاء في مقال لأحمد أبو شـوك نشر في بعض المواقع الإسـفيرية «في نوفمبر 1914م دعا ونجت باشـا علماء الدين البارزين، وزعماء الطرق الصوفيـة، ووجهاء المجتمع إلى اجتماع بسرايا الحاكم العام، وأوضـح لهم أن الحـرب لم تكن ضد الإسـلام والمسـلمين، بل ضد ألمانيـا وحلفائها الأتراك الذين يسـعون في الأرض فسـاداً. وفي ذلك

الاجتماع، أعلن الزعماء السُّودانيون ولاءهم للحكومة البريطانية: «نحن مع الحكومة الحالية قلباً وقالباً، ولاشأن لنا بتركيا التي تبعت مشورة ألمانيا، وأعلنت الحرب بالارتباط معها». وطُبع ذلك الإعلان في منشور، أضحى يُعرف ب «سِفْر الولاء». وإلى جانب ذلك الإعلان انهالت التبرعات النقدية على جمعية الصليب الأحمر (8400 جنيه)، ولصندوق أمير المال (1500 جنيه)، وأرسل بعض أصحاب الإبل (الجمال) ومُلاكها 1175 جملاً لمساعدة الحملات العسكرية في نقل المؤن والعتاد. وأبدى الزعماء الدينيون والقبليون تأييدهم للحكومة والإمبراطورية البريطانية في حربها ضد الخلافة العثمانية وألمانيا، ثم وقَّعوا على سِفْر الولاء الذي نشرته جريدة السُّودان تايمز في 4 أغسطس/آب 1915، تحت رعاية الحاكم العام والسكرتير الإداري، والشيخ مصطفى المراغي (قاضي القضاة)، والشيخ الطيب هاشم (مفتي السُّودان)، والشيخ أبوالقاسم أحمد هاشم (رئيس لجنة العلماء)، والسيِّد علي الميرغني، والشريف يوسف الهندي. وسِفْر الولاء هوعبارة عن مجموعة من العرائض والتلغرافات والرسائل التي بعثها نفرمن الزعماء الدينيين ورجال الإدارة الأهلية، وعلماء السُّودان إلى مكتب الحاكم العام بالخرطوم، معربين عن ولائهم لحكومة السُّودان وتأييدهم للإمبراطورية البريطانية في حربها ضد الدولة العثمانية وألمانيا. وجاء في مقدمة هذا السِّفْر التلغراف الذي بعثه السيِّد علي الميرغني من كسلا، والذي يُقرأ نصه هكذا:

«كسلا في 12 نوفمبر 1914... عطوفة الحاكم العام... إن الحزن والأسف لَمِلْء أفئدتنا لدخول تركيا في حرب ضد بريطانيا العظمى؛ الأمر الذي حصل بلا شك رغم وضد إرادة ورغبة السُّلطان وعقلاء

دولتــه، والذي تكـدَّر منه المســلمون في جهــات الأرض الأربع أربع جهات الأرض. ولا ريب أن العالم الإسلامي كله يصبُّ مقته وسخطه الشديد على الدولة الألمانية الباغية المسبِّبة لكل هذه الشرور والمصائب، والمنقاديــن إليهــا من رجــال حكومة تركيا. إنَّ عطف المســلمين على الدولة التركية لا لأنهــا تركيا، بل لاعتبارات أخرى معروفة، أمَّا وقد ألحقت الحكومة التركية نفســها بالدولــة الألمانية واتَّحدت بها حتى صــارت كإحدى حكومات الاتحــاد الجرماني، فلا ريــب أنها فاقدة ذاك العطف الثمين الذي لا يُقدَّر، وتلك خسارة عظمى عليها لا تقوم ولا تُعــوَّض.. هــذا وإننا نرفــع خالص ولائنا وإخلاصنــا العظيمْين جدّاً عنَّا، وعن الشــعب السُّــوداني كلّه لدولة بريطانيا العظمى، تلك الدولــة العادلة التي تحــترم ديننا، وتهتم بمصالحنــا، والتي عمَّرت بلادنا بنعم العدل والعمران، والتي يُظلِّل عدلها نحو التسعين مليوناً من إخوتنا المســلمين بأنحاء الأرض، والتي هي المُحِبَّة حقّاً للمسلمين والصديقة الحميمة لهم... علي ميرغني».

ووصف ل. ب. جرديني، محرِّر جريدة السُّودان تايمز، الرسائل والتلغرافــات الواردة في سِــفْر الولاء بأنها «دليل قاطع على ســيادة المبادئ الأساســية للحكم البريطانــي... رغم أنَّ السُّــودان أحد أكثر المســتعمرات البريطانيــة حداثة إلا أنه أثبت... مــن بين الدول القليلة المخلِصة والمتفانية في سبيل خدمة أغراض الإمبراطورية».

https://www.sudaress.com/sudanile/110213

المترجم

***

ثم اندلعــت الحرب العالمية الثانية بعد مــرور نـحو ربع قرن من السنوات من ذلك. وفي غضون سنوات تلك الحرب الثانية تدفقت أيضا عــلى البريطانيين رســائل الولاء والإخلاص من كل أرجاء الســودان المختلفة. وتطوع الكثيرون دون تردد للمشاركة في حرب ستكسبهم شــهرة خالدة لا تشــوبها شائبة. وأرســل كل من لا يقدر على القتال بنفسه هدايا في كرم فياض أخجلنا. واستقبل الصليب الأحمر وغيره من المؤسســات الخيرية مبالغ مالية ضخمة. ولم يكتف السيد السير عبد الرحمن المهدي (حامل وســام فارس الإمبراطورية البريطانية، K.B.E. ونيشــان فيكتوريا الملكي C.V.O.) بالتبرع بالمال وبكميات كبيرة من القطن، بل اســتضاف في داره عددا كبيرا من أفراد القوات البريطانية. وتبــارى الأغنياء والفقراء في عمليــات التبرع والتطوع. فقــد تبرعــت إحدى قبائل البقــارة بمئة وأربعة مــن أفضل خيولهم لخيالــة قوة دفاع الســودان. وقاد الميدوب قطعــان من أغنامهم عبر شــجيرات الصحراء لمســافة 400 من الأميال حتى بلغــوا أم درمان لتقديمها هدية إلى البريطانيين. وكان من أكثر المواقف السودانية أثرا على المشــاعر هو موقف واحدة من أكثر القبائــل تخلفا وأقلها تقبلا للحكــم واســتخدام النقد، حيث عرضت أن تقــرض الحكومة عشرة جنيهات كاملة لمساعدتها في ساعة حاجتها!

ولم تكن الهدايا وعروض المســاعدة تلك هي المســاهمة الوحيدة للســودانيين في مجهودنا الحربي المشــترك. فقد رضــوا – عن طيب خاطــر – ودون أدنى تذمر أو احتجاج عــلى الاجراءات التي أجرتها

الحكومة للضغط على المصروفات مثل تقنين المواد الاستهلاكية وغيرها من التدابير التقييدية، والتي لاقوا صعوبة في فهم أسبابها، ولم يقدروا دوافعها (شملت تلك التدابيرتخفيض المرتبات وإيقاف الترقيات وتسريح مئات العمال وغير ذلك، وربما لم يكن صحيحا تماما رضا الناس بتلك الإجراءات. المترجم).

لا ريب أن رابطة الكومنولث البريطاني (بل كل العالم الحر) مدان بدين كبير للسودانيين لولائهم وتعاطفهم وعونهم (لبريطانيا في تلك الحرب).

***

أعلن (الزعيم الإيطالي) موسوليني في العاشر من يونيو 1940م – أي بعد ستة أيام من إخلاء دينكرك (إحدى المعارك البارزة خلال الحرب العالمية الثانية التي نشبت بين قوات الحلفاء وألمانيا النازية، والتي انسحب فيها ثلث مليون جندي من جنود الحلفاء. المترجم) – الحرب رسميا على بريطانيا العظمى وفرنسا. وأحس موسوليني وهو يرى فرنسا جاثية على ركبتيها، وبريطانيا أشبه بالعاجزة عن الدفاع عن نفسها، وألمانيا وقد أحكمت سيطرتها على غالب دول أوروبا، بأن الفرصة قد لاحت له أخيرا لتحقيق حلمه الذي طال انتظاره بإنشاء إمبراطورية إيطالية كبرى. ورأى أمامه إمبراطورية تمتد من طرابلس في ليبيا إلى أرتيريا والحبشة وأرض الصومال الإيطالية، ويشمل ذلك بالطبع كل من مصر والسودان، وأرضي الصومال الفرنسية والبريطانية، وتلك إمبراطورية تبلغ مساحتها 3,000,000 ميلا مربعا، يقطنها نحو 32,000,000 نسمة، وقد يزيد سكانها بـ 13,000,000 نسمة وتزيد مساحتها بـ 675,000

ميلا مربعاإضافية، إلا إذا طمع حليفه الجشع والأقوى في ضم أوغندا وكينينا وتنجانيقا وزنزبار لنفسه.

وبـدا أن ثروة أفريقيا في متناول يـده: القطن والمنتجات الأخرى مثل الذرة والسمسـم والبن والفول السـوداني، وأعداد لا حصر لها من الماشـية والغنـم والمعز والإبـل، إضافة لجوز الهنـد والأناناس والمانجو والبهارات المختلفـة، وكل منتجات المناطق المدارية الرائعة المذاق والرائحة الأخرى.

وبـدا أن موسـوليني في طريقـه بالفعـل لتحقيق حلمـه القديم والاستيلاء على كل ما ذكرناه. وتحضيرا ليومه ذاك جمع موسوليني في شرق أفريقيـا جيشـا مكونا من 300,000 من الجنود المسـلحين المزودين بوسـائل انتقال حديثـة، إضافة لأربعمائـة مدفع ومائتي طائرة. غير أنه لم تكن كل تلك القوات جاهزة للعمليات الهجومية، إذ أنه كان لزاما عليه الاحتفاظ بقسـم كبير منها في الحبشة، والتي كان يناصب أهلها جيشـه أشـد العداء والكره بسبب ارتكاب تلك القوات لأشد الفظائع وأنكرها (مثل القتل بالغازات السامة وغير ذلك).

وقبـل سـنوات قليلة أقدمت القـوات الإيطالية عـلى الهجوم علي أديس أبابا وقتلت من سكانها أكثر من 9000 فردا، وأعدمت إيجازيا عـددا كبيرا مـن أفراد العائلـة المالكة في مختلـف الأقاليم. وهاجمت الصوامـع والأديرة وقتلوا رهبانها رميـا بالرصاص دون محاكمة، وقتلت أو نفت كل حبشي تلقى تعليما أوروبيا. وبقي الأحباش الذين كانوا يفتقرون للقـوة والقيادة عاجزين – في عداء مكتوم - للقوات الإيطاليـة الكبيرة العدد، في انتظار يوم يسـتلون فيه سـيف العدالة المنتقمـة من غمده. وبلغ العـداء للقوات الإيطالية في الحبشـة مبلغا

جعلهم يحرصون على عدم تقليل أعداد جنودهم بها خوفا من حدوث ما لا يحمد عقباه لهم. غير أن مخاوفهم تلك ربما كان مبالغا فيها. فقد كان الأهالي قد قهروا بعنف ووحشية الانتقام الإيطالي، وساهمت الخلافات العرقية والقبلية في تفريق كلمتهم، فتفرغوا للصراع فيما بينهم. وكان الأحباش قد أصابهم الفزع عندما علموا بسقوط فرنسا (على يد الألمان)، وكانوا يعدونها أكبر قوة عسكرية في العالم قاطبة. غير أن الأمر تغير عندما زودتهم حكومة السودان بالأسلحة والذخائر. وعندما آب الإمبراطور (هيلاسيلاسي. المترجم) لبلاده، بدأ الأحباش في أداء دور فعال في الحرب ضد الإيطاليين. وواجهت «قوة دفاع السودان» الصغيرة (4,500 فردا) جيوش موسوليني كبيرة العدد والعتاد. وقد سمي جيشنا باسم مناسب لوظيفته ومهامه هو «قوة دفاع السودان». وكان الغرض من إنشاء تلك القوة هو تقوية النظام الداخلي، ولم يكن مهيأً للمشاركة في حملات خارجية. لم تكن لتلك القوة أي دبابات أو مدافع، عدا بعض الآثار القديمة التي وضعت أمام قصر الحاكم العام بالخرطوم، وكانت تثير الهلع بين المواطنين عندما تطلق منها طلقات الترحيب في الاحتفال ببعض المناسبات. وقدم سلاح الجو الملكي البريطاني لقوة دفاع السودان سبع طائرات عتيقة (من نوع فينسنت المصنوعة في عام 1928م)، وظلت تلك هي الطائرات الوحيدة في السودان إلى أن أرسلت بريطانيا سربي قاذفات قنابل تم وضعها في قاعدة ببورتسودان لحماية السفن العابرة للممر البحري صوب الهند والشرق. ووضعت أيضا حاميات من تلك القوة الصغيرة (4,500 فردا) في نقاط متعددة لمنع تعديات القبائل المنفلتة القاطنة على الحدود مع الحبشة. وكان بعض رجال

تلك القبائل يعارضون ما قامت به الحكومة من منع للصيد الجائر ولحملات صيد الرقيق. بينما رأى النوير – وهم قوم يتوقون دوما لخوض المعارك أو لشن حملة نهب لأبقار الآخرين - في الاضطرابات التي عمت المنطقة فرصة سانحة لبدء غزواتهم الخاصة.

وأخفقت الوحدات المكونة لقوة دفاع السودان في أن تخوض، كوحدة منظمة واحدة، معارك في مناطق شاسعة، إذ أن الغرض الأساس من إنشائها منذ البداية كان هو الحفاظ على الأمن الداخلي، وتم بنائها وتطويرها على أساس محلي (بحسب المناطق المختلفة بالبلاد)، وأسندت مهام كل وحدة لمواطني نفس المنطقة الذين اعتادوا على العمل في أرضها وتضاريسها الخاصة. وتولى هؤلاء مؤونة إطعام أنفسهم بأنفسهم في الثكنات. وكانت لديهم القدرة على التحرك عسكريا بسرعة فائقة بعد صدور الأوامر، دون أن يحملوا من الزاد إلا قبضة من ذرة أو نحوها، ولا يحتاجون في تحركهم لأي وسيلة من وسائل المواصلات، التي قد يعيق الحصول عليها تحركهم. غير أن ذلك النظام البسيط واجه لاحقا كثيرا من المصاعب عندما وجدت «قوة دفاع السودان» نفسها ملزمة بالعمل مع بقية الجيوش الإمبريالية الأخرى التي لديها جيش نظامي مرتب وله تقاليد راسخة ومستدامة من قديم في كل ما يتعلق بالترتيبات والنظم العسكرية مثل توزيع المهمات والمُؤَن وتقنينها، واتباع سياسيات وخطط وطلبات عسكرية محددة بدقة فائقة. وفي ذلك كتب العميد أي. جي. نوت أحد قادة الألوية البريطانية عام 1944م في مقال بالعدد LVIII لمجلة المهندسين الملكية (Royal EngineersJournal) ما نصه: "لم تستطع الآلية الهندية للتوريدات أن تدرك تماما ما الذي يريده

السودانيون، وقد كانوا يجهلون تماما لغتهم وطرقهم وعاداتهم. لقد قامت "قوات دفاع السودان" على مبدأ "الاكتفاء الذاتي" وامتازت بالمرونة الشديدة في اللوائح والإجراءات، ولم يكن بمقدورها أو رغبتها أن تلتزم بالطرق والوسائل التقليدية للوحدات النظامية وتشكيلاتها. غير أن القادة والعاملين الآخرين في تلك الوحدات، بعد مواجهتهم لمشاكل عديدة من ذلك الجيش الخاص لم يعهدوها من قبل (مثل عدم فهم لغتهم وعاداتهم ووسائلهم وسلوكهم الفردي، وافتقارهم للوائح والنظم، وقيادتهم من قبل هواة ومتحمسين)، أفلحوا رغم كل ذلك في التعامل معهم، والصبر عليهم، وفي حل كل المشاكل معهم في نهاية المطاف.

وذكر ذلك العميد أيضا في مقاله أن تكوين الفيالق المختلفة كان يختلف بحسب البلاد التي تكلف بالعمل على أرضها، ونوع وطبيعة المهمة المسندة إليها.» ففي شمال السودان أسندت مهمة حفظ الأمن لقوة الهجانة. وفي غرب السودان وُكِّلَا لأمر لقوات المشاة الراكبة وبعض الهجانة، وأما في الشرق فقد كانت هنالك فرق مشاة مع بعض الجنود الخيالة. وكانت قوة الدفاع في الجنوب تتكون من رجال الاستوائية - كانوا يتحدثون بألسنة متعددة، وكانوا قد نبذوا بالكاد حياتهم الهمجية المتوحشة (savagery)، إلا أنهم مع ذلك كانوا في غاية الشجاعة والاقدام والإخلاص.

وكونت في عام 1934م سرايا مزودة بمدافع رشاشة. وفي اليوم الأول من يونيو 1940م وصلت للسودان مدافع جبلية من نوع هاوتزر قطر الواحد منها 3.7 بوصة، وكانت تلك أول 16 من تلك المدافع تُجلب من الشرق الأوسط. وفي البدء، كانت قوة دفاع

السـودان (المكونة من 4,500 رجلا فقط) مسؤولة عن حفظ الأمن في بلد مساحته تقارب مساحة أوروبا. وكان يساعد تلك القوة بعض مئات من رجال الشرطة المدنيين، وثلاث كتائب من القوات البريطانية من أفواج غرب يوركشـاير وويرسيسترشير وايسكس، كان عددهم الـكلي 2,500 فـردا – كانـوا كلهـم يقيمـون في الخرطـوم وأتـبرا وبورتسـودان. وكان يواجههـم في الجانب المعـادي 100,000 من الجنود الإيطاليين مزودين بمدافع ودبابات وعربات مدرعة، إضافة لنحـو 200 طائرة. وكان بمقدور هؤلاء غزو السـودان عبر 1200 ميلا من الحدود في كرورة شمالا إلى كسلا والكرمك وغامبيلا، أو عن طريق هضبة بوما في الجنوب. وعلى الرغم من أن كل الظروف كانت ضد قوة دفاع السودان، إلا أنه لم يكن هنالك فرد في السودان يراوده أدنى شـك أو تردد في مقدرات تلك القوة، بل اندفع الكل للمسـاهمة في المجهودات الحربية المختلفة. ولم يشـذ في الواقع عن ذلك الاجماع سـوى صوت أحد الشـيوخ الذي عبر عن اسـتغرابه لعدم قيام قليل من سرايا قوة دفاع السـودان بالهجوم الفوري على الجيش الإيطالي (المكـون مـن 100,000 رجلا) الـذي يواجههم. وعبر ذلك الشـيخ بصراحـة شـديدة وبأوضح العبارات عن عدم رضـاه من "التراخي البريطاني"! ولا ريب أن اللواء بلات، قائد قوة دفاع السـودان، كان يشـعر أحيانا باسـتحالة مهمته في صد القوات الإيطالية التي تفوق قواته في العدد والعدة. فقد كان عليه حراسة 1200 ميلا من خطوط السـكة حديد بين أتبرا وبورتسودان وكسلا وسنار والخرطوم ضد هجوم جوي، أو هجوم بري مفاجئ. وكان عليه أيضا حراسة كبري البطانة عبر نهر الأتـبراوي، إضافة بالطبع للحدود الممتدة من مصر

إلى الحبشة.وعملا بالقاعدة التي تقول بأن لا فائدة من الانتصار في المناطق الحدودية وخسارة العاصمة، قام اللواء بلات بالحفاظ على كتائبه البريطانية الثلاث في مدن الخرطوم وأتبرا وبورتسودان حمايةً لها. ولم تكن هنالك عوائق تذكر أمام تقدم القوات الإيطالية إن هي أرادت التقدم نحو ساحل البحر الأحمر على الحدود التي يبلغ طولها خمسة وعشرين ميلا، إذ أنه ليس هنالك في تلك المنطقة أي إمكانية للتدخل البري من الغرب، وهي منطقة محمية من جهة الشرق. ومعلوم أن نحو 80 – 90% من البشر والبضائع التي تدخل إلى السودان تأتي عبر ذلك البحر. ولا شك بأن فقد السيطرة على تلك الحدود والميناء الرئيس كان سيكون أمرا كارثيا.

***

لم تؤخذ السلطات المدنية والعسكرية على حين غرة تماما باندلاع الحرب. فقد كانت قد استعدت لما يفرضه ذلك الواقع الجديد. فقد قامت تلك السلطات عقب ميونخ (المقصود - بحسب ما ورد في موسوعة الويكيبيديا - هو«معاهدة ميونخ أو اتفاق ميونيخ هي اتفاقية تمت في ميونخ في 30 سبتمبر 1938م، بين ألمانيا النازية، وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وكانت بمثابة تسوية تسمح بضم ألمانيا النازية لمنطقة السوديت التابعة لتشيكوسلوفاكيا والتي يعيش فيها مواطنون ناطقون بالألمانية في محاولة لاحتواء ألمانيا وتجنب اندلاع حرب عالمية أخرى. المترجم) بجمع الكثير من المواد الاستهلاكية الضرورية وغيرها وخزنت تحسبا ليوم يمكن أن يجد السودان نفسه فيه مقطوعا عن العالم الخارجي، ومعتمدا فقط على موارده الذاتية الشحيحة. وتم استيراد نصف مليون عربة نوم

السكة حديد، وجمعت أيضا كمية كبيرة من مستلزمات المستشفيات وأقنعة الغاز والأجهزة المضادة للغازات، وخزنت أيضا كمية كبيرة من الأقمشة والجلود. ولم تفت على المسؤولين حتى الأشياء الصغيرة مثل أعواد الكبريت. وعند إعلان إيطاليا الحرب، قامت المصالح المدنية المختلفة (التي كانت قد حولت مهامها بالفعل من مهام مدنية إلى أخرى عسكريَة بمد القوات السودانية بما تحتاجه) بمضاعفة جهدها والعمل على تغطية احتياج البلاد بأنواعها. وكانت أكثر المصالح نشاطا في ذلك المجال هي مصلحة "المخازن والمهمات"، التي زادت من أعداد العاملين بها من 400 إلى 6,000 في نحو عام واحد. وتم في منتصف عام 1940م ضم مصلحة "المخازن والمهمات" إلى مصلحة "النقل الميكانيكي" التابعة لقوة دفاع السودان، وإلى مصلحة "المهمات البريطانية" لتكون ما عرف بـ "قسم إمدادات الحرب»، الذي قام على تأسيسيه ببراعة فائقة الرائد قاي فولي (الحاصل لاحقا على وسام فارس الإمبراطورية البريطانية O.B.E.) بحسبانه المسئول الأول عن المهمات. وشملت مهماته إنتاج العربات المصفحة، والعربات، والأسلحة، وصيانة قطع السلاح التي يغنمها أفراد قوة دفاع السودان من العدو، وتوفير مشابك القنابل (bomb - clips) لسلاح الجو الملكي، إضافة للملابس الداخلية للممرضات العاملات في "قوات فرنسا الحرة"، ونسج غطاء قرمزي اللون للمظلة الاحتفالية التي صُنعت لإمبراطور الحبشة الذي كانت مصلحة السكة حديد قد زودته من قبل ذلك بثمانية طبول نحاسية كبيرة. وتولت تلك المصلحة صناعة بالون ضخم لرصد الأحوال الجوية بطلب من الفرنسيين في فورت لامي، وجهاز لتحديد الوجهة لسلاح الجو الملكي، ولأقواس

لسـهام حارقة اسـتخدمت في حرق أكواخ العدو في نتوء بارو Baro Salient بإثيوبيا.

وكانـت "مصلحة المخـازن والمهمات" قد قدمت مسـاهمات قيمة، حتى قبل بدء العدائيات، في الحملة الناجحة ضد الحبشـة التي سـتأتي بعد ذلك. ولم تكن المدافع الرشاشـة الخفيفة من نوع برن Brenlight machine gunتعمل بصورة حسنة في السودان تحت ظروفه المدارية المعروفـة. غير أن تلـك المصلحة أفلحت في إصلاح الأعطـاب قبل وقتٍ كافٍ سـمح لـزوارة الحربية (في بريطانيا) بعمـل التعديلات اللازمة. ولكـن، على الرغم من الاهتمام الذي كان قد أولى لتوقع كل الاحتمالات والظروف إلا أن بعض المشاكل غير المتوقعة قد قابلت قيادة القوات في السودان. فقد جاءت للسودان الفرق الهندية الرابعة والخامسة وليس معها أي نوع من الأدوات المكتبية، وكان لزاما على السلطات السودانية تزويدهم بكل ما يحتاجونه من أدوات مكتبية وأقلام وأحبار وطاولات ومقاعد واستمارات مطبوعة خصيصا لهم.

وتولت مصلحة السـكة حديد بناء كل الإنشاءات العسكرية. وكان عـدد العمال بتلك المصلحـة يبلغ 2,000 من الرجـال والصبيان، مع قليل مـن الإنجليز الذين كانـوا يتولون مهمة المسـاعدة أو الاشراف عليهم. وسيغدو كل هذا الأمر أكثرتميزا ووضوحا عندما يتذكر المرء أن السـودان مجتمع زراعي، وليـس مجتمعا عالي التصنيع والتقنية. فلم يكن في السـودان قبل أقل من نصف قرن أي فرد يشـتغل بالبناء / النقش الحجري أو الحدادة أو النجارة أو الهندسة، ولم يكن هنالك فنيـون لصناعـة أي شيء عدا الحـراب والمعاول وقليل مـن المعدات الزراعية البدائية.

وعـوض الارتجـال البارع بعـض النقص الذي لم يكـن منه بد، فحول الزُّنْبُرُكُ في سـيارة الفورد القديمـة إلى منجل، وقطع الحديد الخـردة إلى مفاصـل للأبـواب وغيرهـا. وقُطعت علب مـاء الصودا والبـيرة وحولت إلى أكواب. وصنعت من أخشـاب صناديق البضائع المعبـأة القادمة بالطائرات من أمريكا أثاثا اسـتخدم في المؤسسـات والمستشفيات والمعسكرات والمقاصف. وصنع الطُوب الحَرَارِيّ من الطوب العادي المكسور بعد إضافة الاسمنت له. وعندما أنشئ معسكر في أركويت تم بناء الحمامات فيه من خليط من الخرسـانة والزجاج المكسور، ومسح الخليط حتى صار ملمس أسطح تلك الحمامات «يسر الناظريـن» كما أعلن ذلك أحدهم من الإذاعة السـودانية بأم درمان. ومن أجل الاقتصاد في اسـتخدام الفحم، بدأت القطارات في استخدام مصـدر جديد للطاقة هو قوالب الفحم المحلي أو بذور القطن. ووجد أن بـذور القطن كانت مصدرا لا بأس للطاقـة عندما تبدأ المحركات في العمـل، ولكن كانت تلك المحركات تجد عسرا شـديدا في أن تخرج كمية كافية من البخار عندما يتوقف القطار. وعادة ما يصدر القطار أصواتا تشـبه النخر والشـخير عندما يبدأ في مغـادرة المحطة وكأنه يعبر عن عدم رغبته في الاسـتمرار في تلك الرحلة. واسـتخدمت بذور القطن كمصدر للطاقة أيضا في البواخر النهرية. غير أن استخدام تلك البذور كان سببا في إصدار حرارة شديدة في أرجاء الباخرة جعل من الصعوبة الامساك بالشوك والسـكاكين والمعالق في صالون الباخرة من فرط الحر. وكانت الباخرة في الواقع «محرقة طافية»، فقد كانت تطلق شررا متوهجا من مدخنتها طوال مسيرها.

وكانت مـن وظائـف مصلحة الأشـغال العامة، إضافـة لمهامها المعتـادة، تحضـير أو نظافـة مئـات الأميـال من الطـرق وخطوط

السكة حديد، وتشييد طرق جديدة قرب المخازن والمستودعات، وإقامة محطات لاسلكي، وإنشاء مصانع مكيفات ومحطات توليد الطاقة، وتصنيع عجلات الجرارات، وحوامل بنادق لويس، ودروع حاملات مدفع برين، ومضخات الطرد المركزي، وهياكل الحافلات، والنقالات، ومستلزمات عسكرية عديدة أخرى. وأقيمت مما توفر من مواد محلية تسعة مطارات صغيرة دائمة وعشرين حظيرة كبيرة للطائرات. وحفرت آبار جديدة في كثير من الأماكن بعد واجهت الأعداد المتزايدة من القوات في البلاد صعوبات جمة في الحصول على الماء. وبقيت ثلاث سفن معطوبة راسية في ميناء بورتسودان في انتظار الإصلاح. وكانت تلك المدنية تعاني من نقص المياه بسبب ثلاثة سنوات متتالية من شح الأمطار. وكان من المهام الجانبية لمصلحة الأشغال العامة تصنيع الأصباغ لتمويه الخيام، وأعيد استخدام الأخشاب التي تصنع منها ليستخدم في إيقاد المواقد لتحضير تلك الأصباغ.وبذلت بعض المحاولات لاختراع صبغة تطلى بها الإبل بغرض التمويه. غير أن الإبل رفضت بقوة وشمم القبول بأن يصبغ وبرها وهي حية تنظر، مما دعا من فكروا في اختراع تلك الصبغة للعدول عن الأمر برمته.

وتفاوتت أنْشِطَة الحكومةبين تحضير السائل اللمفي والأمصال إلى إنشاء مصنع لأعواد الثقاب في جبال الأماتونج، ومصنع لقَدِيدُ اللَّحْم في الجنوب، ومحطة إذاعة في أم درمان. وتفاوتت أيضا بين طباعة منشورات باللغة الأمهرية عليها ختم إمبراطور الحبشة، إلى تصنيع آلة بعث البرقيات واشارات اللاسلكي، ومدرجات معدنية للطائرات. ومن تعيين موظفين للعمل في المنارات بالبحر الأحمر، إلى

نقل آلاف الجالونات من المـواد البترولية بعيدا عن المناطق المعرضة لقنابل الأعداء.

ورغبـة منهـم في المسـاعدة، عمل صبيـة بين سـن الثانية عشرة والسـابعة عـشرة في خدمة المجهـود الحربي تطوعا لمـدد تصل إلى عشر سـاعات في اليـوم. وكان كثير من أولئك الصبيـة يتلقون العلم في مدرسـة تديرها «مصلحـة المخازن والمهمات». غـير أنهم وجدوا في عملهـم كمتطوعين في خدمة المجهود الحربي فرصا أوسـع وأكثر تجانسا للتعلم من مجرد تعلم القراءة والكتابة والحساب (في الأصل The three Rs: Reading, Writing and Arithmetic. المترجم) أو تعلم مواد أخرى. وفي كل يوم من أيام الأسـبوع يخرج نحو ألف مـن السـودانيين من بيوتهم عند الخامسـة صباحـا لركوب عربات الـترام المزدحمة، أو يعدون نحو قطـارات لا تتوقف لهم، متوجهين نحـو مـكان عملهم الواقـع على بعد نحـو عشرة أميـال بالقرب من «شـجْرة غردون» (المقصود هو «شـجرة ماحي بيك» التي سـميت لاحقا «شـجرة غردون» في حي الشجرة الحالي. المترجم)، ويؤوبون لبيوتهـم بعد سـاعات مـن مغيب الشـمس. وكانوا يبقـون جوعى لسـاعات عندمـا يفوتهم اللحاق بالترام للرجـوع لدورهم. ولم يكن أحد منهم يعبأ بأخذ عطلة أو العمل لثمان ساعات في اليوم.

لـم تكـن كل أعمال السـودانيين مقصورة على مقابلـة الاحتياجات الحربية فحسـب. فقـد تمت صناعـة 200,000 عنقريب (هيكل سرير bedstead يصنعه السـودانيون من الخشب وينسجون حوله سُيورا / قِطْعَـا مُسْـتَطيلَةٌ مِـنَ الجِلْدِ أَوِ الحبـال. المترجم) ليسـتخدمها الجنود في مناطـق الشرق الأوسـط المختلفة مثل مصر وسـوريا وفلسـطين)،

ومقابض لمتخلف أنواع الآلات، وكميات كبيرة من الحبال يمكن أن تلف بها الكرة الأرضية. وقام الأهـالي ببيع أبقارهم وأغنامهم من أجل دعم المجهـود الحربي، مدفوعين بلا ريب بسـبب ارتفاع الأسـعار،من أجل إطعـام الجنود في السـودان وخارجه. وأخليت كردفـان ودارفور من كل الخيول الصالحة للخدمة العسـكرية، وذلك لاستخدامها في النقل في الأماكن التي يتعذر فيها سير المركبات الآلية.

وأحكمت السـيطرة عـلى التجـارة، وأدخل نظام دعـم الأغذية، وحفظت الأربـاح التي تجنيها الحكومة نتيجة لسـيطرتها المركزية على تجارة التصدير في صندوق إسْـتِئْماني لصالح كل أفراد المجتمع. وارتفعـت مسـتويات (غـلاء) المعيشـة بمـصر وفلسـطين بنسـبة 300%، ولكنهـا لم تتجاوز 100% في السـودان. وظلت السـيطرة على الوضع الاقتصادي في السـودان محكمـة حتى أنه أعلن في أبريل من عام 1944م عن فائض في ميزانية ما عرف بصندوق الاسـتقرار (stabilization fund) يزيد عن 700,000 £. ورغم أن ما حدث من تضييق في المعيشة والتجارة كان مزعجا لذلك الشعب الأبي والشديد الاسـتقلالية، إلا أنهـم تقبلوهـا في ولاء وإخلاص بسـبب الثقة التي بناها الحكم البريطاني في غضون أربعين عاما.

***

وفي خضـم كل الاضطراب الـذي أحدثته الحـرب كان لزاما على الحكومة أن تضمن الحياة اليومية للمواطنين تسير سيرها الطبيعي، وأن تـدار شـؤون الناس بـإدارة مدنيـة. وبالطبع لـم يتغير معدن المجرمـين إلى معدن طيب بسـبب تلك الحرب، ولـم يتحول الآثمون

إلى تقـاة صالحين فقط لوجود عدد أقل من رجـال الشرطة ليمنعوا جرائمهم أو يجلبوهم للوقوف أما عدالة متأخرة.

وتمـت كذلـك مكافحـة الجراد (أهـم حليـف للعدو) بوسـائل مختلفـة منهـا دوريات - من عـلى البعد - وتنظيف مئـات الأميال من القنوات من الحشـائش في منطقة الجزيـرة (بين النيلين الأبيض والأزرق). ولـم تتوقف حركة البحث العلمي والخدمات الطبية، ولا المنازعـات القضائية بين الخصـوم في القضايا المدينة (مثل النزاعات حـول الأراضي بـين الجيران) بسـبب حـرب تجري عـلى بعد مئات الأميال. واتخذت الإجراءات المناسـبة لضمان استمرار سفر الحجاج إلى مكة رغما عن المشـاكل الحادثة في البحر الأحمر. وصار المفتشون (الإداريـون) - رغم تناقص عددهم - يجوبون المناطق الأكثر تخلفا بصورة متكررة، وهم مجهدين ومرضى أحيانا، من أجل تذكير الأهالي بوجود الحكومة، ولتطمينهم كذلك بأن الأمور تحت السيطرة. ومع انحسـار الحرب من السـودان زار كثير من المسـؤولين المناطق التي سـبق للعدو احتلالها وتم طردهم منها. وبعث بالمجيدين منهم للغة العربيـة والعارفين بالعادات الإسـلامية لإدارة بعض البلاد البعيدة مثـل العراق وفلسـطين وأرتيريـا وكيرينايكي (برقـة). وتم إعارة العاملين بمصلحـة المعارف (التعليم) إلى عـدن، والقضاة الشرعيين إلى نيجيريا.

وأدى كل أفـراد شرائـح المجتمـع، في أوقات فراغهـم، أدوراهم في العمـل كمرشـدين عند حدوث غـارات جوية، وفي مهام مشـابهة أخرى في مجال الدفاع المدني. وتعاون في ذلك النشـاط السـودانيون والأغاريق والمصريون والبريطانيون والأرمن والسـوريون. وتناسى

كل هـؤلاء اختلافاتهـم العرقية والدينيـة. فالاغاريـق أرثوذوكس ورومـان، والسـوريون كاثوليكـ، والأقبـاط يتبعـون المشـيخية القبطيـة. وكان هنالـك أيضا يهود وكويكـرز وغيرهم من أصحاب العقائـد المختلفـة مـن "أهل الكتـاب". وأسـمى هيندرسـون ذلك الجمـع "جيش الأوبـرا الهـزلي comic opera army". ولعله كان أكثـر التجمعات ديمقراطيـة في العالم. وكان خريجـو كلية غردون التذكاريـة والموظفـون الأوربيـون يتدربون جنبـا إلى جنب العمال والفنيـين. وكان قضاة المحكمة العليا البريطانيـون يتدربون معهم وهـم يرتدون نفس الزي الرسـمي للمتدربين، ويسـتخدمون نفس الأسـلحة مثلهم مثل سُـعاةٌ (مراسـلات)المكاتب والباعـة المتجولين في السـوق. وكان الناس كلهـم يقومون – طواعيةً - بكل الأنشـطة المتنوعـة التي من شـأنها تحقيق الانتصار في تلك الحرب. وشـملت تلك الأنشـطة زراعة البطاطس في منطقة نائية لم يسبق للناس فيها زراعة ذلك المحصول، أو تنظيم فرقة لتفكيك الألغام.

وبطريقـة أو بأخرى، ورغما عن كل الصعاب والمشـاكل المتكررة الحـدوث، إلا أن الحياة في أوسـاط أفراد المجتمع ظلت تسـير سـيرها الطبيعي. وبالنسـبة للكثيريـن لم تكن للحرب تأثـيرات واضحة على حياة الناس سـوى ارتفاع أسعار بعض المواد الضرورية، أو تقييد أو تقنين بيع بعضها. وناضلت شـعوب السودان في خضم دوامة الحرب المضطربـة بقوة متجـددة وثقة جديدة في قدراتهـم الذاتية. وفي حالة غياب رؤسـائهم ومستشـاريهم البريطانيين، أعطيت للسـودانيين - بسبب الحرب - مواقع للسلطة والقيادة والمسؤولية، ربما كان عليهم الانتظار لسنوات قبل أن يتولوها في زمن السلم ذي الإيقاع الأبطأ. ولا

ريب أن السودانيين شغلوا تلك المواقع بكفاءة واقتدار، فكانوا مصدر فخار لأنفسهم وفائدة للآخرين. وأكسبتهم تلك التجربة خبرة أهلتهم لمزيد من فرص القيادة والمسؤولية التي كانت تنتظرهم الآن.

***

كانت الحكومة السودانية قد تلقت اشعارا بقيام الحرب قبل أربعة ساعات من قيامها. ومهما يكن من طموحات موسوليني الكبيرة، فمن المؤكد أن الإيطاليين لم يستسيغوا تلك الحرب، إذ كانت تعوزهم الرغبة الحقيقية في قتال حلفائهم السابقين، الذين كانوا أصدقاءهم منذ أيام غاربالدي (المقصود هنا هو القائد الإيطالي جوزيبي غاريبالدي– 1807 – 1882م. المترجم) بأكثر مما كانوا أصدقاء لحلفائهم في الصحراء الغربية بمصر. فقبل نصف عام، وتحديدا في أول يوم من أيام عام 1939م كان الضباط البريطانيون والإيطاليون يتناولون عشاءهم معا في (المتمة) ويحتسون الشراب مع الأمنيات باستمرار العلاقات الطيبة. وقبل يوم واحد من إعلان قيام الحرب فعليا، حذر الإيطاليون الرائد موريس مفوض منطقة غامبيلا من قرب حدوث «أعمال عدائية»، ووعدوه بتأمين خروج آمن له حتى جاكاو (Jokau) شريطة أن تستلم كل قواته في جامبيلا، وأن تترك محطة اللاسلكي بها سليمة دون أدنى تخريب. وحتى بعد ذلك، تمت في مايو من عام 1940م دعوة ضباط قوة دفاع السودان في كسلا والقضارف إلى أسمرا كضيوف على الضباط الإيطاليين بالمدينة، إذ أنهم كانوا بمثابة "أصدقاء عبر الحدود".

وربما كان لهذا التأبي وعدم الرغبة في القتال من جانب الإيطاليين،

علاقة بعوز الانتظام والحماس الكافي عند الطيران الحربي الإيطالي، أو ربما كان سبب ضعف مجهودات ذلك الطيران مرده إلى فشل الحكومة الإيطالية في تزويدهم بما طلبوه من شحنات القنابل. وفي يوم السادس من يونيو كانت السفينة الإيطالية س. س. امبريكا (s.s. Umbrica) تمر أمام بورتسودان وهي تحمل 5,000 طناً من القنابل لسلاح الجو في أرتيريا. وكانت تلك فرصة ذهبية ومحيرة في ذات الوقت للسلطات البريطانية في الميناء، وكرهوا أن تفلت من قبضتهم تلك الغنيمة الباردة. غير أن الحرب بين الدولتين لم تكن قد أعلنت، لذا لم يكن لديهم من سبب في اعتراضها. غير أن تلك السفينة شوهدت في اليوم التالي وهي تغرق. ويبدو أن طاقم السفينة هو من أغرقها، بعد تلقيهم لأوامر سرية. وعجل الأدميرال البريطاني الذي كان يحكم عدن، وكان يومها موجودا في بورتسودان، بالعودة إلى رَصِيف الميناءوهو فرحان جزلاً، ورقص هنالك «رقصة المزمار»، مما أثار عجب سائقي سيارات الأجرة الذين كانوايتنظرون هناك (بحسب ما ورد في كتاب بي. كينيدي - كوك المعنون «كسلا في أيام الحرب «Kassala at War».

وكان القصف الجوي الإيطالي في غضون أيام الحرب في غالب الأحوال عشوائيا عديم الفعالية وقليل التأثير. وتركز ذلك القصف الإيطالي على قطعان الأغنام والمعز والإبل المتجمعة حول حفائر المياه أو الآبار. وكان من نتائج مقتل أعداد كبيرة من تلك البهائم إثارة غضب ملاكها ورعاتها، وزيادة اهتمامهم بالحرب، وكانوا قبل تلك الموجة من القصف الجوي فيها من الزاهدين. وعندما أصابت إحدى تلك الضربات الجوية شيخا مهما من شيوخ كسلا في مقتل، أشعل

مقتله حماسة رجال تلك القبيلة وجعلهم يقدمون كل ما عندهم للسلطات البريطانية دعما لمجهودها الحربي. وفي غالب الظن لم يكن القصف الإيطالي موجها بدقة نحو هدف معين، بل كانا قصفا متعجلا وعشوائيا، وكأن الطيارون كانوا يريدون إتمام قصفهم والعودة إلى قواعدهم سالمين، أو أنهم كانوا – بحسب حساباتهم الخاصة – يريدون إثارة غضب الناس(على الحكومة الإيطالية). وكان من ضمن المواقع عديمة الأهمية العسكرية التي قصفها الطيران الإيطالي مقر إرسالية السودان الداخلية (Sudan InteriorMission) في دورو (بمديرية أعالي النيل سابقا، وهي الآن بدولة جنوب السودان. المترجم). وكان من ضحايا ذلك القصف قسيسان أمريكيان قتلا، وجرح اثنان من قساوسة الإرسالية. وقصفوا أيضا قباب عائلة ود الحاشي. ومن العجب أنهم نثروا بذات الطائرات منشورات للأهالي تؤكد أن إيطاليا هي حامية الإسلام ومؤسساته. ولكنهم في مرة أو مرتين قصفوا أيضا أهدافا أكثر مشروعية في الخرطوم وأم درمان. وكان لموقع العاصمة بين النيلين الأبيض والأزرق أثر في سهولة "عثور" الطيارين الإيطاليين على المدينة، خاصة وقد كان هنالك قبل وقوع الحرب رحلات طيران مدني بين الحبشة والخرطوم.

***

وبمجرد إعلان الحرب، وطن السودأن نفسه وشد كل عصبة فيه استعداد ليوم لا يقف فيه موقف المدافع فحسب، بل يكون جاهزا للهجوم. وسرعان ما تضاعفت القوات السودانية ست مرات عما كانت عليه قبل وقوع الحرب. ولم يك ذلك بالأمر السهل بسبب قلة

أعداد الضباط، مما استلزم قيام رجال الشرطة بتدريب المستجدين في مراكز التسجيل.

وكانت هنالك العديد من المشاكل المستعصية المتعلقة بالترحيل. فقبل بدء معركة كرن كان لزاما على القوات السودانية تدبير حمولة 1000 شاحنة (لوري) من قذائف المدافع من على بعد يتراوح بين 150 و200 ميلا من أقرب محطة للسكة حديد.

وكان بعد المسافات وعدم كفاية وسائل الاتصال من أكبر عوائق التعبئة. فقد كان لزاما على الجنود القادمين من دارفور مثلا قطع مسيرة ألف ميل سيرا على الأقدام حتى يبلغوا نقاط الحدود التي سيعملون فيها. وتقاطر الرجال المحاربون مسرعين من كل حدب وصوب لمساندة وتعضيد الرجال الشجعان قليلي العدد الذين وقفوا للدفاع عن بلادهم التي كان الدفاع عنها وحمايتها من أهم استراتيجيات الحرب بأكملها.

كانت "قوة دفاع السودان" جزءا من قيادة أكبر، على رأسها اللواء آرشيبولد ويفيل، كانت تغطي كل ساحات القتال في شمال وشرق أفريقيا، وبها قواعد في أماكن متباعدة مثل القاهرة والخرطوم ونيروبي. وكانت الامدادات القادمة من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية تصل بطرق ملتوية لمقصدها عبر البحار إلى بورتسودان، أو بالبر أو الجو من تاكورادي الواقعة في الساحل الغربي لأفريقيا على بعد 3,000 ميل (المقصود هو مدينة سيكوندي تاكوراديفي غانا. المترجم). وتبعد القاهرة عن نيروبي مسافة لا تقل عن 3,000 ميلا، يتم قطعها بالبر والسكة حديد والنهر.

يا لكبر مساحة الأراضي التي قدر للواء ويفيل الدفاع عنها، ويا

لقلة المصادر التي كانت متوفرة له. فما أن تنتصر قواته في جبهة ما، حتى يضطر لنقل جنوده المرهقين إلى جبهة أخرى على بعد آلاف الأميال. فعلى سبيل المثال نقل ذلك القائد جنود الفرقة الهندية الرابعة من "سيدي براني" في برقة للقتال في كرن، ثم أعادهم للدفاع عن مصر ضد الجيش الألماني بقيادة روميل ("سيدي براني» الآن مدينة مصرية تتبع لمحافظة مطروح، وتبعد عن الحدود الليبية - المصرية نحو 95 كيلومتر. المترجم). وفي مارس 1941م نقلت وحدات أخرى من جنوب الحبشة إلى مصر بعد إكمالها لمهمتها.

***

كانت مناطق العمليات قد قسمت لثلاثة أقسام (مناطق معارك) أطلق عليها أسماء ملائمة هي: أعالي النيل، والنيل الأزرق، والبحر الأحمر.

1.<u>قوات أعالي النيل:</u>

تمتد منطقة أعالي النيل لمسافة 400 ميل من خور يابوس (وادي موسمي بالقرب من الكرمك. المترجم) الذييقع إلى الشمال على بعد 150 ميلا هضبة بوما، و150 ميلا أخرى من هضبة بوما إلى كينيا. وكان يقوم على حراسة تلك المنطقة الجنوبية سريتان من جنود الاستوائية تم تجنيدهم من رجال بعض أكثر القبائل وحشية وهمجية في السودان. ولحراسة بقية الحدود البالغ طولها 400 ميلا، كان هنالك 192 رجال شرطة مسلحين، إضافة إلى 355 من الاحتياطي. وكان مركز بعض هؤلاء الاحتياطي في مدينة ملكال – التي تقع على بعد 200 إلى 300 ميلا. غير أن معظمهم كانوا موزعين

على نقاط عديـدة لحفظ النظام في مناطـق يقطنها مئات الآلاف من الأهالي، ولم تكن في حاجة لمزيد من التعزيزات.

وعند هطـول الأمطار تظل معظم تلك الأراضي تحت الماء، وكثير من المناطق الباقية عبارة عن مسـتنقعات تجعل تحرك الجنود مهمة عسـيرة قاسية، وأحيانا مسـتحيلة تماما. وقد حدثت حالات اشتباك بين أفراد من قوات "صديقة" بسـبب ارتفاع الحشائش الذي يجعل الجنـود لا يفرقون بين العـدو والصديق. وكان الذبـاب والبعوض يعذب رجال الشرطة ليل نهارا. ولم تكن هنالك أي مظلات أو أماكن يلجأ إليها العسـكر من انهمار الأمطار الغزيرة. وبسبب تلك الأجواء تعـذر عـلى الجنود وغيرهم إيقـاد النار لتجفيف ملابسـهم أو طبخ القليل الـذي يملكونه من ذرة بللتها الأمطـار. وكان رجال الشرطة يعانـون كذلك من قلـة الطعام، والـذي لم يتعد ذرة قليلـة وأحيانا بعض الشاي والسكر وحبات من فول سوداني كان يحافظون عليها في "جـراب الجرايـة" الذي يوضع في حقيبة الظهـر. وصف أحدهم حياتهم بأنها كانت تشـابه حياة "دجاجة مزركشة / طير غينيا"، في إشارة لما كانوا يلتقطونه من الأرض. ولعبور مجاري المياه الفائضة لم يكن أمامهم سـوى السـباحة، وهذا يعرضهم لهجوم التماسـيح الجائعة.

وكان مـع رجال الشرطـة (192 فردا) نحـو 4000 من الجنود المدربـين (أي كتيبة كاملة)، وعدد كبير من جنود الاحتياطي ليسـوا بعيديـن عنهم. وعلى الرغم من كل المصاعب والمشـاق التي فرضتها طبيعة البلاد، والنقص في الامدادات الذي كان مفروضا عليهم، ظلت دوريات الشرطة تؤدي عملها دون انقطاع. وكانوا يشـاهدون دوما

وهم يخوضون أو يعومون في المياه لأميال عديدة وهو يقومون برحلات طوافهم المنهكة.

بدأت العمليات العسكرية بغزوات متقطعة على السودان قامت بها قوات مجندة من أهالي الأراضي المنخفضة في الحبشة يسمون (الباندا). وعمل الايطاليون على تشجيع هؤلاء (الباندا) بمواصلة القيام بتلك الغزوات التقليدية التي كانت الانتصار فيها في سابق السنوات لحكومة السودان.

غير أن الأمر الأخطر هو استيلاء القوات الإيطالية على جامبيلا، وهي نقطة تجارية في الحبشة تنازلت عنها السلطات الحبشية قبل سنوات إلى حكومة السودان – وهو تنازل لم تعترف به إيطاليا بعد انتصارهم على الحبشة. وأجبر الرائد موريس ومعه 27 من رجال الشرطة على الخروج من غامبيلا، وهذا مما ترك الباب مشرعا أمام هجوم على الناصر وملكال. وتم سحب القوات السودانية من نقاط أخرى. ورغم قلة أعداد رجال القوات السودانية وكبر عدد القوات المعادية لهم، فقد كانت قوات الشرطة السودانية تقوم بين حين وآخر بمهاجمة قوات العدو وطرد الإيطاليين منها، أو على الأقل إبقائهم في حالة استعداد دائم بمختلف الخدع (الحربية). ففي إحدى الحالات قام أحد رجال الشرطة برفقة البمباشي ويدربين – ماكسويل بدخول الكرمك (وكانت بأيدي الإيطاليين) ونثروا في طرقات المدينة منشورات. وقام شرطي آخر (اسمه جونقبي ليري) بالدخول في ديل Dulووجدها قد هُجرت تماما، فآثر أن يقضي ليلته في «ميز» الضباط الإيطاليين– وكانت ليلة سعيدة بالفعل مثلت له راحة وتغييرا مرحبا به من حياته الرتيبة.

وبـدأ موسـم الامطار ينحـسر تدريجيا، وبـدأت مناطق المنطقة المختلفـة تجـف. وفي ذات الأيام بدأت الامـدادات البشرية والمادية في الوصول. وسـجل البريطاني المدني جي . ان. مويسون (نائب مدير مديرية أعالي النيل وقائدها العسـكري) بكل سـعادة عن اسـتلامه لأربعة مدافع من نوع لويس، والتي سـيتدرب عليها رجاله، ومن ثم سيسـتخدمونها في الدفاع عن ملكال ضد طائرات العدو – رغم أنها ليست السلاح المثالي ضد الطائرات المغيرة، ولكنها أفضل من البنادق على كل حال.

وفي يوم 24 أكتوبر وصل فوج من حراس «بنادقة الملك الأفريقية» إلى ملـكال وملـوط والرنك. غير أنـه لم تكن هنالك أعـداد كافية من الجنـود المدربـين لتخفيف عـبء القتـال والقيام بالدوريـات الذي تحمله، لوقت طويل، عدد قليل من رجال الشرطة المدنيين. ("بنادقة الملـك الأفريقيـة» هو فوج متعـدد الكتائب الكولونوليـة البريطانية اتخذت لها مواقع مختلفة في شرق أفريقيا منذ بداية القرن العشرين وحتى ستيناته. المترجم).

***

2.قوات النيل الأزرق:

كان على قوات منطقة النيل الأزرق حراسة حدود أقصر (مقارنة بمنطقـة أعـالي النيل)، فقـد كان طولها 160 ميلا، مـن الكرمك إلى الروصـيرص ونهر الدنـدر – ولكنها كانت أكثـر أهمية من المناطق الجنوبيـة، فقد كانت هي المفتاح للدخول إلى سـنجة وسـد (خزان) سـنار – وهي كانـت سـتكون أقيم الجوائـز للعـدو. ولاحقا، أدى

سقوط كسلا في أيدي الايطاليين إلى قطع خط السكة حديد الدائري (بين هيا - أتبرا - الخرطوم - سنار - القضارف) لم يكن بوسع اللواء بلات إرسال قوات إضافية ومُؤَن إلى كسلا إلا عن طريق هيا - سنار. وكان فقدان ذلك الخط عبر خزان سنار سيؤدي لوضع الجزء الجنوبي من ذلك الخط الدائري خارج دائرة العمل، ويضاعف من مصاعبه العويصة أصلا.

وعلى الرغم من أنه كان من المستحيل منع غارات العدو بصورة كاملة، إلا أنه، لحسن الحظ، كانت نُهَيْرات وخيران المياه على امتداد الحدود الحبشية، والشجيرات والأعشاب النامية حولها تعيق الإيطاليين من شن هجوم واسع في صيف 1940م، إذ أن موسم الأمطار كان قد بدأ لتوه. وكان عدد رجال الشرطة في هذه المنطقة لا يتجاوز 110، وكان يعوزهم التدريب العسكري. ولم يكن هنالك أي وجود لقوات عسكرية سودانية بالقرب منهم، لذا لم يكن هنالك أي أمل في حصولهم على مدد عسكري. وكان رجال الشرطة هؤلاء موزعين على نقاط صغيرة متباعدة. وما كان يمكن لهم إن هاجمتهم قوات العدو سوى الصمود والدفاع بغرض تأخير تقدم تلك القوات، أو الانسحاب لنقطة أخرى والانضمام لقوتها، ومواصلة المقاومة مع رجالها بصورة أكثر فعالية. وكان يجابه هؤلاء الـ 110 رجلا من الجانب المعادي 5000 جندي إيطالي مزودين بالمدفعية والطائرات والمدافع - بنسبة 1 إلى 50، مع الأخذ في الاعتبار الاختلاف الشديد في مستوى التسليح والآلات والتدريب.

وفي السابع من يوليو 1940م هاجمت كتائب من القوات الإيطالية مدعومة بجنود مدفعية ومدافع رشاشة وطائرتين بمهاجمة الكرمك،

التي كانت تحت حراسة 70 من رجال الشرطة المدنيين العاملين مع باشمفتش المنطقة البريطاني ميرفن بيل. واضطرت تلك الحامية الصغيرة لاحقا للانسحاب.

وكان هنالك على بعد مئات قليلة من الياردات خارج الكرمك زريبة (أي معسكر) لشيخ أورا (Ora). وجد ذلك الشيخ نفسه محاطا بالجنودالإيطاليين، فآثر الاستسلام والذهاب للعدو، وبل ومساعدتهم في الحصول على المواد الغذائية. وبلغت الأنباء باستسلام الشيخ للسلطات في الكرمك، فقام سليمان أفندي أكرت (الذي يعمل الآن نائبا لوكيل السودان Assistant Sudan Agent في لندن) في معية دورية صغيرة إلى داخل زريبة الشيخ وأعتقله تحت سمع وبصر الحامية الإيطالية المستعمرة، وعاد به للسلطات الحكومية. وهنالك قصة أكثر إدهاشا تروى عن الصول عبد الرحمن عبد الله، الذي بقي في الكرمك للبحث عن زوجه. ولم يقدر جنود الجيش الإيطالي قوتهم الكبيرة حق قدرها، وخافوا من هجوم معاكس قد تقوم به القوات السودانية، فبدأوا في الانسحاب. ووجد الصول عبد الرحمن زوجه. ثم قام الصول ومعه ست رجال كانت قد تقطعت بهم السبل في الكرمك بإشعال النار في أسطح المباني الحكومية، وحطم عربتين حكومتين، وأخذ بعض بغال الحكومة وخزنتها (التي كان بها 600£نقدا)، وآب مزهوا لقاعدته وسلمهم ما جلبه من ممتلكات الحكومة في الكرمك. ويتفق معظمنا أن ميدالية الجدارة (للشعبة المدنية في وسام الإمبراطورية البريطانية) التي منحت لذلك الصول هي مستحقة تماما.

ووجدت السلطات السودانية نفسها مجبرةً على الانسحاب من

بعض النقـاط الحدودية الأخرى. ولم يكن المـزاج الملتبس الغامض لبعض كارهي الحكومة لمنعها تجارة الرقيق بين الحبشة والسودان، ولا العوائـق الطبيعيـة مـن فيضانـات الأنهار وغزارة الشـجيرات والحشـائش قـد منعا انتظـام مـرور دوريات الحكومـة على طول الحدود. وكان مرور تلك الدوريات هو سـبب بقاء القوات الإيطالية في حالة استعداد دائم طوال فترة الحرب.

وبالإضافـة لتلـك الدوريـات، كان كل مـا يمكن عملـه هو إقامة متاريس في الطرق، ومنع أي ثغرات يمكن للعدو من خلالها الدخول للأراضي السـودانية، وتدريب المزيد من رجال الشرطة الراكبين على ظهور الخيول، ومواصلة تطمين السـكان بأن المدد العسـكري قادم في الطريق.

وظل الموقف بالمنطقة شديد التوتر لشهور عديدة، وكانت هنالك أسـبابا عديدة للقلق. ففي أكتوبر (عام 1940م) تقدمت قوة مكونة من 200 رجلا بقيادة ضباط إيطاليين من الكرمك نحو كيلي(Keili)، وقضـوا الليلـة في (المتمة) التي تقع على بعد خمسـة أميال من كيلي. وبلغـت البمباشي باركر (المفتش المدني لمـشروع زراعي في المنطقة) الأنباء عن قرب وصول تلك القوة المعادية، فقام من فوره مع خمسة وعشريـن رجل شرطة بالتقدم نحوهم. وعند السـاعة التاسـعة بلغ معسكرهم، ووجدهم يتناولون عشـاءهم فباغتهم بالهجوم. ومرت عـشر دقائـق قبل أن يعيـدوا تنظيم قوتهم وأن يـردوا على من كان يطلـق عليهم النار بالمثل. وأخيرا، لعجزهـم عن تقدير العدد والقوة الحقيقيـة (الصغيرة) لمهاجميهم، آثروا الانسـحاب إلى الكرمك وهم يحملون معهم جرحاهم.

وبعد أيام من ذلك الحادث حدث غزو أكثر خطورة مما سبق ذكره. وفيه قامت قوة مكونة من 1500 إلى 2000من القوات الإيطالية بقيادة العقيد رولي بالتوغل لمسافة ثمانين ميلا في داخل السودان، وبلغوا نقطة لا تبعد بأكثر من خمسة وعشرين ميلا من الروصيرص على الرغم من الهجمات التي شنتها على رتل قواته ثلة من رجال القوات غير النظامية (الصديقة) التي نظمها الزعيم القبلي السوداني المك نايل. غير أن المضايقات المستمرة التي وجدتها القوة الإيطالية من قبل رجال الشرطة السودانيين، ومن هؤلاء المقاتلين غير النظاميين، وصعوبة الحصول على الطعام والماء بما يكفي لتلك القوة الكبيرة (نسبيا)، أوقفت تقدم تلك القوة الغازية. وأجبر العقيد رولي على الانسحاب، مخلفا ورائه عددا من الأسرى والقتلى الذين ماتوا بطلقات الأهالي أو الشرطة الذين كانوا يتابعونهم من على البعد. وفي تلك الغزوة الفاشلة خسر الايطاليون 400 رجلا، وعددا كبيرا من البغال والبنادق التي كتب على كثير منها (شرطة أرض الصومال)، مما يقف دليلا على نجاح الإيطاليين في تلك البلاد التي لا تبعد سوى أميال قليلة من السودان.

وبدأت من خلف تلك الستارة الرقيقة من رجال الشرطة (المدنيين) تحركات ضخمة أخذت تأخذ زخما وقوة. وتم صرف أموال ومؤن وبنادق للوطنيين الأحباش، وجمع أعداد كبيرة من الإبل تحضيرا لغزو قوجام (الواقعة في شمال غرب إثيوبيا الحالية. المترجم). واستغرقت تلك التحضيرات عاما كاملا حتى غدت القوات الحبشية مستعدة تماما للتقدم من أجل استعادة بلادها. وتقدمت كتيبة تنجانيقا (6th/2) التابعة لـ "بنادقة الملك الأفريقية» إلى

مواقعهـا المتقدمة، وتم إعادة تنظيم قوة الشرطة للتعاون معهم. ثم جاءت قوات بلجيكية بعـد «بنادقة الملك الأفريقية». وفي بداية يونيو أتخـذ 225 مـن الضباط و5000 من الجنود مواقعـه المتقدمة. وتم طـرد الإيطاليـين من مناطق النيـل الأزرق التي كانوا قـد احتلوها. وقـد كانت أمـام هؤلاء الإيطاليين فرصة عظيمـة لإحراز نصر باهر باحتلال سـنجة وسنار وقطع طريق السـكة حديد عبر خزان سنار مما كان من شـأنه أن يفتح الطريق أمامهم للخرطوم. ويعزى سبب فشـلهم في تحقيـق أي من تلـك الفرص إلىحُفْنَة مـن رجال الشرطة السودانيين المدنيين، وإلى سرية من رجال الهجانة (النوبة)، وآخرين من كتيبة الحدود الذين كانت لدورياتهم الشاقة أكبر الأدوار في خَدْع الإيطاليين، وفي دحر هجومهم بكل شجاعة وإقدام.

3.<u>قوات منطقة البحر الأحمر:</u>

كانـت منطقة البحـر الأحمر أكثـر عرضة وقابليـة للهجوم من منطقتـي النيـل الأزرق أو أعالي النيـل، إذ أن منطقـة البحر الأحمر تجاور أرتيريا التي كانت تتركز بها قوات إيطالية كبيرة. وتقع كسلا (التـي تقع تقريبا عـلى الحدود مع أرتيريا) على بعـد 270 ميلا من الخرطـوم العاصمة، وعـلى بعد أقرب من أتبرا، حيث مركز السـكة حديد المهم. وليس هنالك أي عوائق طبيعية في الطريق إلى الخرطوم وأتبرا تعيق أي قوت إيطالية عسكرية قادمة من كسلا، فكل الأراضي في هـذه المنطقـة منبسـطة تقريبا، وليـس فيها غير نبـات (التبس) وأميال من الرمال الممتدة.

وفي يـوم 4 يوليـو مـن عـام 1940م هاجـم الإيطاليون كسـلا

بـكل ما اسـتطاعوا جمعه من جنود وأسـلحة وعربـات وطائرات. وشـملت قواتهـم لواءيـن اسـتعماريين (في كل واحـد منها 3000 جندي مزودين بالبنادق) مع أربعة أفواج من سـلاح الفرسـان بها 8000 رجـلا –وهجانة مع ثمانية عشر دبابـة. ودافعت عن المدينة سرية واحدة من المشـاة الراكبة مع سرية مدافع رشاشـة (رقم 5)، وبعـض رجـال الشرطـة. وألقت الطائـرات الإيطاليـة موجات من القذائف على السـودانيين، الذين أمطروهم باللعنات لعدم مقدرتهم على الرد. وتوالى هدير الدبابات، واحدة بعد أخرى، وخيل للمدافعين المرهقين أن سيل تلك الدبابات لن ينقطع. وانهمرت الطلقات النارية كزَخَّات المطر على ما وجده الجنود والشرطة السـودانية من سواتِر واهيـة، وظلوا يتحركون في سرعة من مكان لآخر إتقاءً لتلك الزخات المنهمرة. وتواصل الهجوم الإيطالي لاثني عشر ساعة متواصلة دون انقطـاع. ولم يكن بمقـدور أولئك الرجال القلائل، رغم شـجاعتهم الفائقـة، الصمود بأكثـر مما صمدوا ضد أولئـك الآلاف من الجنود المسـلحين بآلاتهـم الحربية الفتاكـة. وكان الانتصـار في النهاية من نصيب أصحاب الآلات الحربية الفتاكة، واضطرت الحامية السودانية الصغيرة للانسحاب تاركة خلفها بعض رجال الشرطة الذين صمدوا لمـدة طويلة ولم يهن عليهم أن ينسـحبوا أمام الغـزاة. وظلوا باقين وفي غاية الفخر بأنفسـهم لإنجازهم البطولي. وقتل منهم رجل واحد وجرح ثلاثة، وفقد أثر سـتة عشر فردا (وجد بعضهم لاحقا طريقه إلى وحداتهـم الأصليـة). وكان رجال الشرطة الذيـن آثروا البقاء في مواقعهم وعدم الانسـحاب قد أفلحوا في تحييد ما يزيد عن 500 من جنود العدو وما لا يقل عن ست دبابات.

ثم انسـحب رجال الشرطة أولئك فرادى ومثنى إلى خارج كسلا، وكانـوا مصدرا غنيا لمعلومات قيمة عن قوات العدو. وكانوا يخفون بنادقهـم مدفونة في كل ليلة في أماكن مختلفة، ثم قاموا بتهريبها عبر طوق الأمن الإيطالي وهي مخبأة في وسـط حزم من القش. ولم تقع في يد الايطاليين أي غنيمة من القوات السودانية سوى شاحنة واحدة ومدفع حولـه نهايات مدبّبة (spiked) وبعـض الذخائر. ولم يفت التخلي عن كسـلا في عضد المقاتلين السودانيين ولا في عزيمتهم. ففي أثناء عملية الانسحاب وقعت أروع مشاهد بطولة (معروفة دوما عن السـودانيين) جعلت الإنجليز يحبونهم ويقدرونهم بأكثر مما كانوا يفعلون.

تذكـر أحد المقاتلين السـودانيين وهو على بعد ميـل أو ميلين من كسـلا أنه نسي حذائه (مركوبه) الذي لا تتجاوز قيمته عشرة قروش (شـلنين)، فقـرر العودة للمدينـة لجلبه. غير أن السـبل انقطعت به وهو في المدينة، فلم يستطع الخروج منها مجددا فبقي مختبئا في أحد البيـوت، وفي أثناء أيامه هنالك قتل 32 من رجال العدو قبل أن يقتله الإيطاليون.

ومـن أمثلـة الدفـاع المجيد عن مدينة كسـلا مثال ذلـك الضابط السوداني الذي صمد طويلا مع ثلاثين من جنوده في قلعة بالقلابات ضـد هجـوم مـا لا يقل عن الفـين من الجنـود الإيطاليين تسـندهم المدفعية والطائرات. واضطروا في نهاية المطاف للانسحاب، ولكنهم انسـحبوا بمهارة عالية جعلت خسـائرهم في حدودهـا الدنيا. ونال ذلك الضابط وسـام "الصليب العسـكري" نظير شـجاعته ومهارته العسـكرية، وكان بذلك هو أول ضابط سـوداني ينال ذلك الوسـام

البريطانـــي (الصليب العســكري، الــذي أقر في نهاية عــام 1914م، هو وسام عسكري من المستوى الثالث يُمنح للضباط لرتب أخرى في القوات المســلحة البريطانية، كما كان يمنح سابقا لضباط في القوات العسكرية في دول الكومنويلث. المترجم).

وصمــد أيضــا خمس رجــال شرطة أمــام هجــوم الإيطاليين في منطقة (كرورة) إلى أن اضطروا للانسحاب. وكذلك فعل السودانيين في قيسان في الجنوب.

غير أن الإيطاليين لم يقوموا بأي محاولة لاستغلال تلك النجاحات رغم أنها كانت بالغة الأهمية الاســتراتيجية. وعوضا عن ذلك، قاموا بوضع كســلا في حالة دفاعيــة، وأبقوا بها خمــس كتائب على الأقل. ورغــم التفــوق الكبير الذي نعمت به تلك القــوات الإيطالية، إلا أنهم عجزوا عن حماية اتصالاتهم مع أرتيريا، وظلوا يتعرضون لمضايقات مســتمرة من رشقات المدافع الرشاشة السودانية التي كانت على بعد ميل أو ميلين خارج المدينة.

ولعل ســبب عــدم توغل الإيطاليين في داخل الســودان كان مرده جبنهــم، والــذي ازداد مع تلقيهــم لمعلومات تعوزهــا الدقة عن قوة الجيش الذي سيجابههم إن هم غامروا بالتوغل عميقا في داخل البلاد. وبالفعل، كان دوق أوســتاقد ســئل لاحقا عن ســبب فشــله في عبور نهر القاش، أجاب بأنه لم يشــأ أن يخاطر بأخذ تلك «المغامرة» نظرا لقوة الوحدات الســودانية الفائقة (الأمير والضابط الإيطالي أميديو، دوق أوســتا- سافوي، 1898 – 1942م، هو من تولى وظيفة حاكم العســكري شرق أفريقيــا الإيطالية. المترجم). غــير أن تلك الوحدات التي أتى القائد الإيطالي على ذكرها لم تكن في الحقيقة ســوى مَفْرَزَةُ

عسكرية وحيدة (من مفارز ويرسيسترشاير)، وست سرايا بمدافع رشاشة متحركة، قد تتوقف عن الحركة إن هبت عليها عاصفة رملية في الصحراء.

وبالفعل كانت العواصف الرملية الشديدة (الهبوب) التي حدثت بطوكر في الشهور القليلة التي تلت إعلان الحرب، قد صعبت من القيام بعمليات عسكرية، بل جعلتها مستحيلة التنفيذ أحيانا. ومن الناحية الأخرى كان هنالك دوما احتمال أن يوقف هطول الأمطار الغزيرة تقدم مركبات نقل الإيطاليين -على الأقل لبعض الوقت - إن حاولوا الوصول إلى الخرطوم أو أتبرا. غير أن ما تبين لاحقا أن خطورة ذلك الاحتمال كانت ضعيفة جدا، إذ أن أمطار ذلك العام أتت أقل مما هو معتاد، ولم تجعل التربة غدقة بالماء.

وربما شعر الإيطاليون - مثلهم مثل الألمان - بأن بريطانيا ليس بإمكانها أن تصمد بأكثر مما صمدت، وإنه من غير اللازم تضييع المال وخسارة الأرواح والدماء من أجل نيل جائزة ستكون من نصيبهم في وقت قريب. وربما أحسوا أيضا بأن بلوغهم لأتبرا والخرطوم سيكلفهم موادا بترولية طائلة قد لا يستطيعون تأمينها، خاصة بعد الضربات الجوية التي تلقوها من سلاح الجو الملكي. وكانت إحدى تلك الضربات في (مصوع) ناجحة جدا للحد الذي دعت فيه القوات الإيطالية لتخزين كميات ضخمة من المواد البترولية مخبأة في مستودعات سرية على بعد عدة أميال. غير أن ذلك لم يكن مجديا، إذ هاجم سلاح الجو الملكي تلك المخابئ أيضا بفضل معلومات مخابراتية مفصلةأَفْضَى بها خمس يَمَانية يعيشون في (مصوع).

وكانت الخرطوم وأتبرا من الأهمية بمكان للإيطاليين، وكان

بإمكانهم أن يخاطروا بالسعي للسيطرة عليهما. وكان التأثير المعنوي لسقوط المدينتين المهمتين سيكون عظيما في كل دول الشرق الأوسط، وستقع مصر تحت تهديد خطير من جهة الجنوب في الوقت الذي كان روميل فيه يتقدم إليها من جهة الغرب. ولم يكن استيلاؤهم على أتبرا يعنى مجرد الحصول على ورش السكة حديد المهمة فيها، بل تمام السيطرة على كل خطوط السكة حديد إلى بورتسودان وكسلا والحدود مع مصر. وباستيلائهم على الخرطوم، كان يمكن للإيطاليين ضمان السيطرة على كل الخطوط المؤدية للجنوب والغرب، وعلى المواصلات عبر النيلين الأبيض والأزرق، والسيطرة أيضا على مساحات شاسعة من أراضي الجزيرة الخصبة المزروعة بالقطن والحبوب، والتي يمكنها أن تسد حاجتهم من هذه المحاصيل.

ولم يكن أمام قوة دفاع السودان، وهي تدرك صغر حجمها وضعف تسليحها، أن تفعل شيئا أكثر من تمويه ضعفها ومحاولة خداع الإيطاليين وإيهامهم بأن لهم قوة ضخمة العدد وحسنة التسليح. وقد أفلحوا في ذلك لدرجة مذهلة. وشن رجال قوة دفاع السودان بعض الهجمات الصغيرة في كل المناطق التي غزاها العدو، بينما تولى سلاح الجو الملكي (وعدد طائراته لا تزيد عن خُمس العُشْر طائرات الإيطاليين) قصف مطارات العدو وخزانات وقوده في صباح اليوم التالي لإعلان الحرب، مما حوله لموقف الدفاع. وقامت سرايا المدفعية بقصف ما وراء خطوط العدو بمدافعها الرشاشة. وذات يوم مشهود هاجمت عربتان مدرعتان 1200 من رجال سلاح الفرسان وقضت عليهم جميعا.

وظلت الدوريات، وكل فرد (في قوة دفاع السودان)، في أي مكان يمكن أن تقاد به سيارة، أو يتسلق فيه بشر لا يتوقفون عن إزعاج الإيطاليين في كل الاتجاهات، وبث الرعب في قلوبهم، وتشجيع كثير منهم على التخلي عن ولائهم للجيش الإيطالي والانضمام للبريطانيين. وكان البريطانيون بعد كل هجوم يشنونه على موقع يحتله الإيطاليون يجلبون معهم عند أوبتهم كما قيما من المعلومات النافعة. وكان جَوَاسِيسُ السودان يجوبون مناطق أرتيريا بحرية دون أن يلحظهم الايطاليون، بل كان بعض هؤلاء الإيطاليين كثيرا ما يزودونهم بالكثير من المعلومات عن تحركات القوافل الحربية وأوضاع الجنود ومواقع تجمعاتهم. وحرص كل فرد في قوة دفاع السودان على عدم إطلاع الايطاليين على الأعداد الحقيقية للقوات السودانية. وتم اعتقال كل الجواسيس والعيون التي بثتها إيطاليا بالسودان بمجرد دخولهم للبلاد بفضل يقظة السودانيين المخلصين. وتحصل البريطانيون على وثيقة مهمة كتبها ضابط إيطالي عبر فيها – بحسرة –عن عجزه عن الحصول على أية معلومات يمكن الاعتماد عليها أو الوثوق بها عن مجريات الأحداث بالسودان. غير أن ذلك الضابط – وغيره – كانوا يتلقون معلومات كثيرة (مضللة) من الأهالي بقصد نشر شائعات كاذبة ومثيرة للشكوك والمخاوف من غير داعٍ. ولبعض الوقت لم يكن هنالك شيء بين الحدود والنيل سوى بعض سرايا المدافع الرشاشة المتحركة في المناطق المجاورة لكسلا. لذا أرسل اللواء بلات (قائد قوة دفاع السودان)قوة عسكرية بالقطار إلى القضارف لتكوين احتياطي لحراسة كبري البطانة على نهر أتبرا، ولحماية منطقة القلابات. وكانت الأوامر الصادرة لرجال

تلك القوة تتضمن أن يقوموا بدوريات في سائر أرجاء المنطقة وأن يتعرفوا على كل شبر فيها، وأن يروا كل شيء وأن يراهم الناس. ورافق اللواء بلات تلك السرية في رحلتها، وقضى معهم يومين أو ثلاثة (وهو في حراسة عريف من يوركشير واثنين من العسكر) في الحديث مع عدد كبير من الأهالي، وكان يصر على أن يختلط هو (مع البريطانيين الآخرين) بأكبر عدد من السودانيين وأن يستمع منهم مباشرة.

وضخمت الشائعات من قوة السرية التي بعثت بها قيادة قوة دفاع السودان فصار عدد أفرادها - كما أشيع - يصل بين 4 إلى 5 ألف مقاتل، وصارت حاملتي مدفع البرين عندهم إلى دبابات! ولما وصلت للسودان الفرقة الهندية الخامسة وصل خبرها للإيطاليين على أنها خمس فرق هندية!

غير أن الخداع لم يقتصر على التقارير الشفوية. فقد كانت سرايا المدفعية المتحركة القليلة العدد مراوغة وتظهر في كل مكان مما دعا قادة وجنود العدو لتسميتها بـ «الشياطين السود». وورد ذكرها في إحدى التقارير الاستخبارية الإيطالية التي تم الاستيلاء عليها بعد وقت قصير من صدورها، حيث أشاد ذلك التقرير بنشاطها الكبير. وأضاف التقرير: «هذه العربات المصفحة تظهر هنا اليوم، ثم تشاهد في صباح اليوم التالي في مكان يبعد مائة ميلا عن المكان الأول. هي في حالة حركة دائمة، ويصعب حصر عددها.“

لم يكن من الصعوبة حصر عدد تلك المتحركات، فعددها الحقيقي لم يكن يتجاوز الخمسة وثلاثين. وليس صحيحا أنها كانت في حالة حركة دائمة، فهطول الأمطار، أو حتى احتمال هطولها يمنع تحركها.

فعددها قليل وهي أثمن من أن تعرض لخطر العطب بسـبب عاصفة غير متوقعة. غير أن تلك السرايا المتحركة قامت تحت قيادة عدد قليل من الضباط البريطانيين بدوريات على طول الحدود، وأسست لتفوق أخلاقي على الايطاليين، ومنعتهم من القيام بأي هجوم كبير. وفي تلك الأيام قدم رجال قبيلة الهدندوة خدمة عظيمة (لقوة دفاع السودان) بتخليهـم عن عزلتهم المعتادة وتحفظهم التقليدي عند اندلاع الحرب وانضموا لما سمي "فيلق القوة الباردة " المكونة من رجال الـ «فزي ويزي» غير النظاميين. وعمل هؤلاء - دون مقابل مادي – كمرشدين، وكجواسيس للحكومة في أرتيريا، وألقوا القبض على ثمانية وعشرين من جواسيس العدو الذين دخلوا منطقة البحر الأحمر.

وفي بـادئ الأمر كان تعليم هؤلاء الـــ «فزي ويزي» من صائدي الوعول المتطوعين وتدريبهم على أي قدر من قواعد النظام العسكري أمرا مسـتحيلا. وكان هؤلاء الرجـال قد تطوعوا لإداء مختلف أنواع الأعمال بسـبب عشـقهم للقتال وولائهم للبريطانيـين. بل إن واحدا منهـم رفـض رفضا تامـا أن يقوم بعمل ما يسـميه جنـود القوات النظاميـة «the old army stuff" (مثـل تدريبات السـير في طابور وغيرهـا)، بل وسـخر من تلك التدريبات العسـكرية وسـماها "لف جـاي وجاي". غير أن البريطانيين لم ييأسـوا مـن محاولة تدريبهم عسـكريا بطريقة تدريجية. وكانت تلك أيضا محاولات لم يكتب لها كبير نجاح بسـبب إصابة هؤلاء المتطوعين بالملل سريعا من التمارين العسكرية. وتطلب الأمر إدخال بعض الألعاب والمنافسات على القفز أو العدو أو السباق في الجبال وغيرها لكسر رتابة التمارين.

وقد يعزى فشـل الإيطاليين في تقدير الموقـف إلى خيالهم الجبان

الـذي ضخم لهم تلك الدوريات المحـدودة التي كانت تقوم بها ”قوة دفاع السـودان“ على الحدود، وصور لهـم تلك القوة على أنها جيش كبير لا يقهر. وقاد الرائد لي قوة في ”خور آشات Ashat“ سماها على اسـم عائلته (قـوة ميدو Meadow Force) مكونـة من أربعة عشر رجـلا من المتطوعين ومعهم ثلاثين من المدنيين غير المسـلحين الذين عهـد إليهم برعاية الجمال. وسـخر ذلك الرائـد لاحقا عندما وقع في يـده تقرير كتبته مخابرات القـوات الإيطالية جاء فيه أن (تقديراتنا الأوليـة لقوة العدو في ”خور آشـات“ كانت مبالغـا فيها. ولكنه من المؤكـد الآن أن القوة لا تتكون إلا من لواءين بريطانيين، رغم أن لهم أيضا بعض الدبابات)!

وفي ”خور يابس“ وقع هجوم مباغت على خمسـين جنديا إيطاليا على رأسـهم ضابط أدى لمقتل أو اعتقال معظمهم. والطريف أن ذلك الضابـط كان قد فـرغ لتوه من كتابـة تقرير لقائده جـاء فيه: (أنا أضمـن لك عدم وجود أي قوات بريطانية في حدود ثلاثة كيلومترات حول ”خور يابس“).

***

يجـب علينـا الاعتراف بأن القـوة التي كانت تحـرس الحدود في انتظـار وصول التعزيزات كانـت قوة مختلطة. فقـد انضم إلى تلك القـوة المحاربة كل من تـم اعفائه من العمل بالمكاتـب الحكومية أو الشركات التجارية. ولما بدأت الحرب فعليا كان على هؤلاء المتطوعين تعلـم ما يمكن لهـم عمله فيها. وشـملت تلك الاعمال فن اسـتخدام البنادق (ضرب نار)، والاشارة، والاستطلاع، وأعمال الهدم، وكيفية

تشغيل المدافع، وحتى جهاز إرسال البرقيات. كل هذا والعدو على بعد أميال قليلة.

لقد كان عليهم، وهم مجموعات صغيرة من الجهلاء بأصول العسكرية، خوض معارك ضد جيش مهني. غير أن المهارة والبراعة التي كانوا يعالجون بها ما يقابلونه من مواقف صعبة كانت جديرة بالإعجاب. كانت عملية «انتاج هواة» جمعت الباشمفتشين، وعمال وموظفي السكة حديد، ومزارعي القطن، مع آخرين من مختلف المهن وجدوا أنفسهم يرتدون الزي العسكري، وكتب عليهم أداء أدوار غير متوقعة من دون أي تحضيرات أولية. وأتى بروفيسور متخصص في الشعر من جامعة القاهرة ليقود سرية من المقاتلين المتطوعين الإثيوبيين. وعمل عالم أنثروبولوجيا كرئيس لفرقة فنية يعوزها التنظيم قدمت عددا من العروض الغريبة، غير أنها لاقت نجاحا كبيرا. من كان سيلومهم إن أخفقوا في أداء أدوارهم وفي حادثة غريبة قام أحد الباشمفتشين بعبور القاش وتسلل إلى داخل مدينة كسلا وهي تحت الاحتلال الإيطالي، ونفذ عملية هدم لمبنى البريد والبرق. وكانت عملية ناجحة بكل المقاييس لدرجة أن الباشمفتش نفسه وجد نفسه مقذوفا إلى الخارج عبر باب المبنى! وبعد مواجهات عديدة مع الجنود الغزاة تمكن بمعجزة من الوصول إلى عربته التي كانت قد وحلت في رمال القاش، واستطاع بصعوبة الهروب والوصول لوحدته.

غير أن ارتجال هؤلاء الرجال فيما قاموا به من أعمال كان ناجحا جدا، تماما وكأنها قاموا بها بعد دراستهم لكتب العلوم العسكرية. وكان البمباشي وعالم الأنثروبولوجيا ايفانز بريتشارد

(له دراسات وأبحاث مهمة عن قبيلة الأزاندى والنوير. المترجم) لا يسعد إلا إذا كانت كل الظروف تقف ضده. فكان يكثر من التجوال في المناطق التي احتلها العدو مع رقيب في الشرطة وبعض رجال قبيلة الأنواك Anyuak/Anuak من الجنود غير النظاميين (ويا له من عدم انتظام لا يعرف قدره إلا من رأى أحد رجال الأنواك العراة في قريته المحاطة بالحظائر على الحدود الحبشية!). وفي أحد المرات وجد ايفانز بريتشارد نفسه وجها لوجه أمام قوة مكونة من 100 إلى 150 من جند العدو تحت قيادة ضابطين إيطاليين. حذر الضابطان ايفانز بريتشارد وأمراه بالانسحاب فورا وإلا سيحدث قتال بينهم. أجابهم في هدوء بأن القتال هو ما أتى به لهذا المكان، وماقدر له أن يكون. وفي حادثة أخرى، كان ايفانز بريتشارد قد زود بقوة من رجال الشرطة العاملين في مجال الاستطلاع. فخرج بهم «بحثا عن المشاكل في بينقودو، حيث أفلح في العثور على الكثير منها: وجد نفسه في مواجهة قوة كبيرة من رجال العدو. غير أن ذلك لم يثن من عزمه، إذ استخدم تكتيكا لا يوجد في الكتب العسكرية، ومضى - مع رجاله - في الهجوم على الأعداء فقتلوا منهم سبعة عشر رجلا، ودمروا مقر قيادتهم، وغنموا منهم 35,000 ليرة.

وكانت للبمباشي باركر (الذي كانت له آراء وأفعال تخالف ما هو متعارف عليه في علوم العسكرية كما ذكرنا آنفا). غير أن هؤلاء «القادة الهواة»، رغم غرابة أفعالهم، كانوا في معية رجال شجعان. ولاحقا، جمع أحد قادة السرايا في معركة كرن أطراف شجاعته وسأل اللواء بلات إن كان من حسن التكتيك أن يستخدم كل احتياطيه فيما عدا ثلاث دبابات، أقر اللواء بلات بأن ذلك سيكون مخالفا لما ورد

في كل الكتب العسكرية التي ألفت، غير أنه يظن أنه يمكن تبرير الاختطار (risk) بالنتيجة النهائية.

لم يكن المشاركون في العمليات العسكرية يرتدون دوما الأزياء المناسبة. فقد كان على حكومة السودان أن تزود ما لا يقل عن 8 أنواع مختلف من الأزياء والمعدات للبعثة الاثيوبية، وقوات فرنسا الحرة، وبنادقة الملك الأفريقية، ولهنود، والسودانيين، ولآخرين كذلك. ولم يتبق شيء ليعطي للجنود المتطوعين / غير النظاميين، وبذا كان عليهم تدبير أمر زيهم بأنفسهم. ولكنه كان من الغريب حقا أن تمر برجل عارٍ تماما من القمز Gummuz (أحد أكثر القبائل السودانية توحشا وهمجية)وهو يقوم بمشقة بالغة بتوصيل رسالة سرية (ليست مشفرة). وذات مرة كان البِمْباشِيّلوري (أحد المفتشين في القسم السياسي لحكومة السودان الذين كانوا على رأس سرية هجانة) يقوم بجولته الصباحية المعتادة في المنطقة عندما وجد أحد رجال النوبة، وهو يحمل بندقيته وذخيرته ويضع خوذته على رأسه، ولكنه كان عريانا تماما. فسر الرجل ذلك ببساطة بالقول بأنه سأم من (غسل) وتجفيف ملابسه، ويفضل أن يبقى بدونها، تماما كما يفعل في بيته / موطنه الأصلي.

غير أن صفة الشجاعة عند الجنود السودانيين لازمتها صفة أخرى هي اللامُبَالاة وعدم الاكترات، وهذا ما أحدث قلقا كبيرا عند قادتهم. ففي ذات مرة استلقى أحد الهدندوة على ظهره بجانب قنبلة لم تنفجر بعد أن كان قد أمر بالاستلقاء على الأرض في حالة حدوث غارة جوية. وكان كل شيء سيمر دون مشكلة إن لم تغلب على الرجل روح الفضول الزائد، إذ أنه أخذ عصا صغيرة وطفق ينقر على القنبلة

إلى أن انفجـرت فجـأة فيه ومزقتـه إربا أمام ناظـري ولده الصغير الــذي كان قد نصحه بعض زملاء الرجل بالبقاء بعيدا عن أبيه لعدم ثقتهم في أنه سيبقى ساكنا لفترة طويلة!

وفي حـوادث الحرب الأخرى، التقط أحـد "الفيزي ويزى" قنبلة صغيرة وهو يحسـبها قـارورة دواء، وحاول فتحهـا بإزالة ما ظنه سـدادتها بإزالة رأسـها. وكان ذلك "فعلا مبالغا فيه حتى بالنسـبة لقنبلـة إيطاليـة!"، كمـا قـال البريطانـي كينيدي – كوك سـاخرا. وانفجرت في الرجل تلك القنبلة أيضا.

وقابل السـودانيون الغارات الجوية بشجاعتهم المعهودة. وكان قائدهـم الميداني يطوف على جنوده النوبة متفقـدا إياهم إبان غارة جوية شديدة الوطأة فوجدهم جالسين تحت شجرة يستمعون لغناء من حاكي (فونوغراف) كان معهم.

كانت الحرب بالنسـبة لكثير منهم "لعبة حظ lucky dip « لا بد أن لهم فيها فرصة الفوز بجائزة ما. ففي إحدى المرات نظم الشـيخ عبد الله بكر، الذي يسمى أيضا بندة بكر، أو قوة بكر (لعل المقصود هو عبد اللـه دود بنجة. المترجم) قوة أقتحم بها مسـافة تبلغ أربعة أميال في وسـط أعشـاب عالية كثيفة للهجوم على الإيطاليين. ووفق رجال تلك الحملة في مهمتهم بأكثر مما توقعوا، إذ أنهم بدأوا زحفهم نحو العدو كرجال مشـاة، وعادوا منتصريـن إلى قواعدهم وهم على ظهـور بغال غنموها من عدوهم. لا شيء يوقف أمام حماسـة أولئك الرجال. فعند الهجوم على قيسـان في العاشر من فبراير 1941م قفز الشيوخ وغيرهم من المتحمسين على ظهور حميرهم أو حتى عدوا على الأقدام للمشاركة في وسط تلك المَقْتَلَة.

وظلت كسلا في أيدي الايطاليين لنصف عام كامل. غير أنه على الرغم من الأخطار والحرمان، واصل مجلس المدينة تحت قيادة السيد محمد عثمان الميرغني وشقيقه السيد الحسن الميرغني عمله بأفضل ما يمكن (المذكوران هم أبناء أخ السير السيد علي الميرغني الذي سبق له تقديم خدمات جليلة للبريطانيين قبل نحو خمسين عاما مضت). وكانا قد خاطرا بحياتهما في سبيل انقاذ حياة الكثيرين بتوزيعهما لما كانا قد ادخراه مخبوءا منذ سنوات تحسبا لسقوط كسلا، وساعدا الكثيرين على الهرب من المدينة، وحالا بين الغزاة المنتصرين وبين ضحاياهم من سكان المدينة.

ويحسب للسودانيين أنهم، رغم المعاناة والضيق في المعيشة، فإنهم لشدة اخلاصهم وولائهم للحكومة، لم يشوا قط بالأماكن السرية التي خزنت فيها الحبوب الغذائية. وكان لشيوخ وكبراء كسلا في غضون كل الأشهر الست التي بقيت فيها كسلا تحت الاحتلال الإيطالي الفضل في إرسال كثير من التقارير الإخبارية القيمة للسلطات الحكومية. وكانت إحدى العاملات في نقل تلك المعلومات قابلة تدربت قبل سنوات في «مدرسة تدريب القابلات» بأم درمان. لم أنقطع عن التفكير في تلك السيدة العجوز وشجاعتها الفائقة وفي مخاطرتها بحياتها عديد المرات لتجلب الأخبار للبريطانيين أثناء مرورها عبر خطوط الإيطاليين الذين أخفقوا في معرفة ما تفعله، وظنوها تقوم بعملها المعتاد وهو تمشي وتجيء بينهم.

وأدت عائلة الميرغني وبقية شيوخ المدنية أدوارا بارزة في التحضير لتقدم البريطانيين إلى داخل أرتيريا. وكان أكبر معين للبريطانيين في ذلك الهجوم هو ناظر الهدندوة (محمد الأمين ترك، الذي أطلق

عيونه (جواسيسه) في كل مكان. وكان لنفوذه الشخصي أكبر الأثر في الحفاظ على حدود منطقته من الغزو، وفي اقناع الناس وحثهم لعمل كل ما في وسعهم لمساندة البريطانيين. وأفلح الناظر ترك في منع الإيطاليين من زراعة القطن في منطقته، رغم أن السودانيين ظلوا يزرعونه بنجاح تام كالعادة، على بعد أميال قليلة من منطقته.

كان لولاء وإخلاص السودانيين (في مناطق الحرب) مخارج / منافذ (outlets) لا تخلو من بعض الغرابة، كان من أغربها قصة ذلك الصبي الذي كان يأتي لأروما يوميا حاملا قراءة منسوب النهر في كسلا! كانت وظيفة أبيه تقتضي أن يقوم بتلك القياسات يوميا، ولكن الغزاة الإيطاليين أوقفوه عن العمل وطردوه من المدينة. غير أن ولده الصغير لم يهن عليه الأ يقوم بأداء واجب والده، وظل يداوم على أخذ قراءات منسوب النهر طيلة أيام الاحتلال الإيطالي (بحسب ما ورد في كتاب بي. كينيدي – كوك المعنون «كسلا في أيام الحرب “Kassala at War”).

***

وعندما أتى شهر يناير من عام 1941م، كانت الاستعدادات للزحف الكبير قد اكتملت. وأتت التعزيزات والمدد من كثير من المناطق – كانت في البدء قليلة ومتقطعة وبطيئة في الوصول من آسيا وأفريقيا وأماكن نائية أخرى. ولكنها الآن اتحدت في سيل واحد نحو مكان واحد هو مناطق حدود السودان مع الحبشة، وعلى طول المحيط الهندي، والهدف بالطبع هو دحر الجيوش الإيطالية في الشمال والجنوب والغرب والشرق.

كان السـودانيون يتطلعون بشـوق إلى ذلك اليوم. وكانت شهور انتظار النزال مع العدو مضجرة وعسيرة عليهم، إذ أنهم رغم حبهم لخـوض المعـارك، إلا أنهم لا يـكادون يطيقون البعد عـن أزواجهم وعائلاتهم. وكانت المشـاكل العائلية التي تنشأ عن غياب الجنود عن زوجاتهم أو خطيباتهم غير معروفة في أفريقيا.

ومنـذ ذلـك التاريـخ خـف أوار الحـرب الدائـرة عـلى الحدود السـودانية، رغم وجود بقية من أَصْدائها البعيدة في جبال الحبشـة وتـلال أرتيريا. مـع مرور الشـهر القلقة، بـدأت القـوات تصل إلى كينيـا البعيدة تحت قيـادة اللواء كينغهام من روديسـيا الشـمالية وروديسـيا الجنوبية، وجنوب أفريقيا، وتنجانيقا، وكينيا، وأوغندا وأسـتراليا واسـكتلندا ونيـازي لاند وسـاحل الذهـب (الآن ملاوي وغانا، على التوالي. المترجم). وأرسـل الكنغو البلجيكي إلى السـودان لواء مشـاة مدعوما ببعض المدافع ووحدة إسعاف ميدانية. وبعثت قبرص بسريتين من البغال مع سـائقيها. وسـاهمت جنوب أفريقيا ببعض الطائـرات المقاتلة من نوع غلاديتور مع طياريها، مع سـت سرايـا للنقل مع سـائقين ملونين. أمـا أفريقيا الوسـطى الأفريقية فقـد بعثـت بكتيبة تشـاد. وبعـث الفيلـق الأجنبي ببعـض المفارز (والفيلـق الأجنبي هو وحدة عسـكرية من الجيـش الفرنسي بقيادة ضباط فرنسـيين وجنود من الدول التي تستعمرها فرنسا، تأسست في ثلاثينيات القرن التاسـع عشر لخوض الحروب الاسـتعمارية في فرنسـا. المترجم) مـع فرق عسـكرية جزائرية تسـمى الصبياحية. وبعثت فلسطين بسرية قوات خاصة (كوماندوس) مكونة من عرب ويهود. بينما أتت من إنجلترا أربع كتائب مشاة، وأتت من أسكوتلندا

كتيبتان من كاميرون هايلاندرز Cameron Highlanders ومشاة المرتفعات الخفيفة Highland light infantry .

وسُـمعت في البلاد في تلك الأيام لغات غريبة يتحدث بها غرباء في بلاد غريبة. فهنالك الجزائريون (الفرنسيون) ورجال «بنادقة الملك الأفريقية» يعملون جنبا إلى جنب العرب من سهول السودان أو النوبة الآتـين من مناطقهم الجبلية. وهنالك رجال قصار القامة من الكنغو البلجيكي يقاتلـون كتفا بكتف مع رجال طـوال القامة من أحراش ومسـتنقعات السـودان، ويعدون أنفسـهم زملاء سـلاح لمحاربين قادمـين من جبـال الهنـد. وكان هنالك شـعوب القرهولي والبلوش والبنجاب والماراثـا انضمـوا لرجـال حصـان اسـكينرSkinner's Horse (هو فوج من سلاح الفرسان بالجيش الهندي أسسه جيمس اسـكنر. المترجم)، ورجال من مدن وأرياف إنجلترا واسـكتلندا. كل أولئـك كانوا يختلفـون في كل شيء تقريبا عـدا في حبهم واخلاصهم لقضيتهم النبيلة الواحدة.

***

وبمـا أنـي معنـي في هـذا الكتـاب بـ «قوة دفـاع السـودان»، فسأسـتعرض هنا بإيجاز طرفا من الأعمـال البطولية التي قام بها السودانيون (مع بعض أفراد قوات الحلفاء) عند الدخول إلى أرتيريا والحبشـة، إلى أن توجـت تلك المعارك البطوليـة في آخر انتصاراتهم في غونـدار وأمبا الاقـي Amba Alagi (التي جرت في مايو من عام 1941م. المترجم).

لـم تعد «قوة دفاع السـودان» القليلة العدد والعـدة بمفردها في

ساحة القتال بعد أن تم تعزيزها بوصول قوات من جهات مختلفة. وتم استيعاب أفراد «قوة دفاع السودان» تحت قيادة أوسع، وشاركوا بقية القوات الأخرى التي قدمت للبلاد مجد الانتصارات العظيمة.

وبسبب قلة عدد جنوده لم يكن بمقدور العقيد كييف أن يفعل شيئا غير محاولة صد هجمات العدو في أقصى الجنوب، على الحدود مع أوغندا وكينياوالمناطق المدارية الأخرى.فقد كان عليهم محاربة أعداء في مناطق في بلدان معادية تبعد نحو 350 ميلا من قاعدتهم على النيل، وفي مناطق تقطن فيها قبائل صعبة المراس على جانبي الحدود تزعج السلطات الحكومية بنفس القدر الذي تفعله القوات الإيطالية نفسها. غير أن ”قوة دفاع السودان“ كانت لها في المناطق الأخرى مساحة ونطاق أوسع للعمل والابتكار وإظهار روح المبادرة والجرأة والمغامرة. وكانت تلك الروح هي ما ميزت أفراد تلك القوة الصغيرة في أيام الحرب الأولى. وكانت هنالك بين سواحل البحر الأحمر وحدود الروصيرص مجموعتان من سرايا المدافع المتحركة (M.M.G.)، كانت المجموعة الشمالية منهما قد سميت ”قوة الغزال Gazelle Force“ – سميت بهذا الاسم لأن تكتيكاتها كانت تعتمد على أن ”تقفز وتقفز مثل الغزال“- مع سريتين من المشاة الراكبة من كتائب العرب الغربية، والكتيبة المختلطةComposite Battalion، وكتيبة الحدود، وقوة جدعون (Gideon Force). ومع نهاية عام 1940م كانت ”قوة الغزال“ تشمل أيضا «حصان اسكينر»وبطاريات مدافع بريطانية. وعملت تلك القوات بنجاح تام حتى بلغت جبال (كرن)، حينما عادت تلك الوحدات لممارسة واجباتها المعتادة.

وكانت الكتيبة المختلطة مكونة من سرية مشـاة من فيالق العرب الشرقية، وسرية رقم 6 من فيالق الهجانة (نوبة)، وجنود من الفرقة السادسـة من فيالق العرب الشرقية (المشـاة الراكبة)، إضافة لقوت بكر التي ورد ذكرها من قبل. ورغم أن المهمة الأسـاس لتلك الكتيبة المختلطة كانت هي حماية الحدود، إلا أنها قامت كذلك بتقديم خدمات جليلة في عمليات تقدم القوات بالعمل أمامها، والقيام بغارات مباغتة عـلى خطوط اتصالات العدو، وجعله في حالة قلق وتسـاؤل دائم عن الأعداد التي سـيواجهها، وعلى الأخص منعه في استقدام أي امدادات أو تعزيزات عند الهجوم على مرتفعات كرن. وشملت «قوة جدعون» (التـي أعطيـت ذلك الاسـم لأن هدفهـا كان»ضرب العـدو في وركه وفخذهTo smite the enemy hip and thighكما ورد في الإنجيل Judges 15:8) بعـض القوات الإثيوبية النظاميـة وغير النظامية، وجـزء من كتيبـة الحدود المكون مـن رجال أتوا مـن غالب مناطق السودان.

وفي يـوم 18 ينايـر من عام 1941م أَخلَى الايطاليون كسـلا قبل سـاعات من هجوم كان من المقرر أن تشـنه قـوات الحلفاء. وكانت تلـك القوات قد فعلت كل شيء ممكن مـن أجل تضليل وخداع العدو في أمـر ذلك الهجوم وتوقيته وغير ذلـك. وتوقف الجنود عن التقدم نحو المدينة على بعد أربعين ميلا منها، إما في مَسِـيل نَّهْر أتبرا أو عند مناطق زراعة القطن في القاش قبل التقدم لأخذ مواقع هجومية. غير أن الأماكن الأخرى شهدت نشاطا محموما ومكشوفا. وأقيم رصيف قصير على سـاحل البحر الأحمـر لم يكن مطلوبا، وشرع في تشـييد خط للسـكة حديد بين القضارف والقلابات لـم يكن من المحتمل أن

يستخدم. وتم تنظيف المنطقة من الشجيرات والأعشاب لتشييد ممرات للطائرات لم تحط عليه طائرة قط. وأقيمت طرق اخترقت الغابات، ولم يستخدمها بشر. ووضعت هياكل مزيفة للمستشفى ولدبابات ومكبات للنفايات لخداع طائرات العدو التي قد تغير على المنطقة.

ثم بدأ الزحف الكبير.

تقدمت قوتان منفصلتان عبر كسلا وسبدرات إلى الشمال، وعبر تسني وبارنتو إلى الجنوب. والتقت القوتان بعد أسبوعين في أغوردات الواقعة على بعد 150 ميلا في داخل الأراضي الإرترية. وخلال تلك المسيرة تم أسر 6000 فردا وغَنْم80 مدفعا و26 دبابة و400 شاحنة.

وأوقف ذلك التقدم السريع عند القوات البريطانية مرتفعات كرن – وكانت تلك أكبر عائق يصادف الجيش البريطاني طوال تاريخه الطويل. ولم يعد بالإمكان قياس التقدم بالأميال في الساعة على أرض مسطحة، بل بالأقدام في اليوم إلى أعلى منحدرات يستحيل تقريبا الصعود فيها. وكان على قوات اللواء بلات قبل بدء الهجوم أن تتقدم أولا عبر سهل عرضه لا يزيد عن ميلين، من دون غطاء سوى ما توفره قليل من الشجيرات الهزيلة أو مَسِيل نَّهْر صغير جاف.

ورد في كتاب حملات الحبشة The Abyssinian Campaigns (وهو كتاب صدر عام 1942م وفيه وردت الرواية البريطانية الرسمية لتلك الحملات. المترجم) التالي: "وبدا فجأة جدار من تلال خطرة حادة الارتفاع ولا يقل علوها عن 2500 قدما، وفي قمتها

صخور صلداء. وستطلق في غضون الشهرين القادمين أسماء جنود لا يمكن نسيانهم على قمم تلك التلال. كان العدو يمتلك مدفعية ثقيلة ودفاعات طبيعية لا يمكن اختراقها تلتف حول قاعدته في كرن لتعطي خطوطا داخلية. وكانت تلك ملاحظة حصيفه من جيش العدو كبير العدد ليخفي فيها بغاله (التي كانت تعوزنا في حرب الجبال تلك) ومدافعه في السهل حيث كان لا بد للبريطانيين من أن يقيموا معسكرهم." وكان بإمكان الإيطاليين، وهم في مواقعهم الحصينة وعند متاريس الطرق والفجوات المخفية، أن يطلقوا على جنود بريطانيا سيلا لا ينقطع من القذائف والهاونات والرصاص والقنابل اليدوية في أثناء محاولتهم المتعثرة لصعود تلك التلال. واستمر ذلك القتال الضاري لشهرين متتابعين (ووصف ذلك مسجل بدقة وتفصيل في كتاب حملات الحبشة المذكور) إلى أن تحقق ما بدا أنه مستحيل التحقيق، وانفتح الطريق إلى أسمرا ومصوع. غير أنه حدثت أيضا بعض النكسات، خاصة عندما نجحت بعض الفرق الإيطالية كبيرة العدد في التغلب على جنودنا وهم يصعدون في جرأة وإقدام لا يقهر إلى أعلى تلك التلال الوعرة. كانت الخسائر بينهم كبيرة. فقد قتل منهم بين 4000 إلى 5000 الفا من الفرقة الهندية الرابعة والخامسة. وتم قتل أو جرح كل ضباط في فرقة قرهاوال رقم 3 / 18، ما عدا واحد ا منهم.

وقال ونستون تشرشل في خطاب ألقاه أمام مجلس العموم البريطاني في التاسع من أبريل من عام 1941م: " كانت قواتنا الهندية هي أول من تقدم للقتال في أرتيريا، وحافظوا في غضون ذلك القتال، على كل الجبهات وتحت كل الظروف، بأسمى سمعة

عسكرية تليق بأبناء هندوستان." ولكن دعنا لا ننسى شجاعة وإقدام جنــود الــ»كاميرون هايلانــدرز» و»غرب يوكشــير» والآخرين من الذيــم لم يأبهوا بالصعــاب وقلة العدد وضعف التســليح، وخاضوا المعارك الضارية وكسبوها. فقد أفلحت ست كتائب مشاة من إنجلترا واســكتلندا مع أثني عــشر كتيبة هندية في قهر تلــك الجبال العصية على الصعود. كانت عملية مشــتركة بين الهنــود والبريطانيين. فعلى الرغم من أن الجنود الفنيين (في ســلاح المهندسين) المشاركين في تلك العمليــات كانوا من الهنــود، إلا أن كل رجال المدفعيــة كانوا قد أتوا من إنجلترا. ولما انتهت تلك المعارك وسقطت (مصوع)، أسرت قوات اللــواء بلات مــا لا يقل عن 40,000 رجلا من الأعــداء وغَنمت 300 مدفعا، بينما فر آلاف المجندين الإيطاليين من ســاحة القتال وهجروا جيشــهم وقضيتهم. وعقب ذلك الانتصار تقدمت القوات البريطانية بسرعــة نحو جبل أمبا الاقي، حيث ســيخوض الجنود الســودانيون معركتهم الأخيرة في ذلك الجزء من الجبهة.

وإلى جهــة الجنوب قدر للســودانيين الحصول على فرصة للقيام بعمليــات بطولية رائعــة وملفتة للنظر. ففي «قــوة قدوين» وكتيبة الحدود» أدى هؤلاء الرجال أدوارا مهمة أفضت لفتح الطريق لعودة الإمبراطور هيلاسلاي لعاصمته.

وعلى الرغم مــن كل الصعوبات الهائلة التــي قابلتها،كانت «قوة قدوين» (مصداقا للاسم الذي تحمله»تضرب العدو في وركه وفخذه») قد أفلحت بالفعل في شل حركة العدو وضربه ضربات موجعة في أكثر مــن معركة خاضتها ضده، ونجحت في تنظيــف كل مناطق جوجام وإجلاء ما لا يقل عن ســتة عشر من الكتائب الاستعمارية، وكتيبتين

من مجموعات (الباندا) النظامية، وأربعة من كتائب «القمصان السوداء» المزودين بالمدافع (نشأت «القمصان السوداء» كجناح شبه عسكري للحزب الوطني الفاشي الإيطالي، وسموا بذلك الاسم لارتدائهم قمصانا سوداء. المترجم). وقتل أو أسر في تلك المعارك نصف أفراد القوات الإيطالية، بينما فر النصف الآخر إلى (غوندار) للحصول على فترة راحة قصيرة من أهوال الحرب. وكان عدد أفراد "كتيبة الحدود" لا يتجاوز مئة فردا، مع ستين جنديا حبشيا نظاميا والفين من الأحباش غير النظاميين. ورغم صغر عددهم الكلي، إلا أنهم غنموا في تلك المعارك سبعة من مدافع الجبل، وخمسين مدفعا رشاشا ثقيلا، ومئة وعشرين مدفعا رشاشا خفيفا، وثلاثمئة فرسا، و15,000 بغلا، وكميات كبيرة من المعدات، وأسروا 7000 من رجال مشاة العدو مع سبعمائة من الإيطاليين المدنيين.

كان ذلك إنجازا مبهرا. لا بد أن الإيطاليين يحسون (الآن) بالذهول الشديد والإهانة البالغة بعد أن استسلموا أمام قوة لا تمتلك سوى ثلاثة من المدافع الرشاشة الخفيفة من نوع برن!وكان يشاركهم في تلك الأحاسيس قائد إيطالي آخر كان يقود 400 جنديا في قلعة موتا (موتا مدينة في شمال غرب إثيوبيا. المترجم)، واستسلم ذلك القائد لملازم بريطاني يرتدي زي رائد ويقود مفرزتين (أي مئة من الجنود).

ولا ريب أن رجال "قوة دفاع السودان" قد أدوا أعظم الأدوار العسكرية وانتصروا على عدو يفوقهم كثيرا في العدد والعدة. فعلى سبيل المثال خاضت تلك القوة (المكونة من ثلاثمائة رجلا سودانيا فقط)، بقيادة العقيد بوستيد، معارك ضارية في ديبرا وماركوس،

حيث انتصروا على 12,000 من جنود الأعداء المزودين بمدفعية قوية ومدافع رشاشة والمتحصنين في المرتفعات الجبلية. وأفلح السودانيون في القيام بهجمات ليلية خاطفة ومتكررة بالحراب وقليل من القنابل اليدوية أزعجت العدو وأجبرته على التخلي عن مواقعهم الحصينة.

ولم يكن ذلك هو الانتصار الأخير الذي شارك فيه الجنود السودانيون، إذ أنهم شاركوا أيضا في هزيمة الإيطاليين هزيمة نهائية في غوندار، في معارك استسلم فيها 11,500 من الإيطاليين و12,000 من الأفارقة لقوة أقل منهم عددا بكثير. وغنمت القوات المنتصرة 400 مدفعا رشاشا و24 مدفع هاون و48 بنادق ميدانية مختلفة المقاسات. وقتل من القوات البريطانية في تلك المعارك الظافرة 116 رجلا، وجرح 386 آخرين. وحدثت خسائر أيضا في صفوف المتطوعين الأحباش. وأفضت تلك المعركة الفاصلة الى فتح الطريق نحو أديس أبابا.

***

بقي الإمبراطور هيلاسلاسي بصورة سرية في الخرطوم لشهور عديدة حيث سكن في ما سمي "القصر الوردي Pink Palace".
وفي يوم 21 يناير عبر الإمبراطور الحدود ودخل الحبشة على ظهر حصانه، وأكمل مسيرته حتى بلغ عاصمته في الخامس من مايو – في اليوم الذي صادف خمس سنوات على الاحتلال الإيطالي.

وكان العقيد (العميد لاحقا) ساندفور قد قاد عملية عودة الإمبراطور، التي أحيطت بسرية كاملة، وأطلق عليها «المهمة 101

"Mission 101". ولم تكن عملية كبيرة ولا مهيبة، إذ لم يشارك فيها سوى ساندفور والنقيب كرتشلي (من فرقة لانسر رقم 12)، وطبيب عسكري مع إثنين من ضباط الصف البريطانيين، في رفقة نحو مئة من اللاجئين الأحباش. غير أنه كان على رأس تلك المهمة قائد مُمْتاز. كان ساندفور رجلا قويا لا يقهر ولكنه لطيف المعشر، يغطي الشعر كل جزء من جسده عدا رأسه. وسبق له الحصول على نوط (Bar) وسام الخدمة الممتازة (D.S.O.)في الحرب العالمية الأولى، وعمل لفترة قصيرة في القسم السياسي لحكومة السودان، ثم قضى خمسة عشر عاما من عمره في الحبشة في معية زوجه الشجاعة. وكان يشكو دوما من قلة المال الكافي لإعالة عائلته الكبيرة العدد. فكان يحاول الحصول على دخل إضافي بكتابة بعض المقالات في (تايمز) و(ديلي تلغراف)، وبزراعة الفراولة والبرقوق في مزرعة على ضفاف النيل الأزرق، أو ببيع المربى في أديس أبابا (بحسب ما جاء في كتاب(Sealed and Delivered, by G. L. Steer). كان الرجل قد حاز على تعاطف وتَفَهّم الكثير من رؤساء القبائل الحبشية، وكان مدركا للصراعات والخلافات بينهم التي حالت دون توحدهم ضد الإيطاليين.

وعبر أفراد "المهمة 101» الحدود في منتصف أغسطس 1840م، عند بدء موسم الأمطار. ولم يكن هنالك وقت في العام يصعب فيه التحرك أسوأ من ذلك الفصل المطير. وظل أفراد المهمة يجوبون أرجاء منطقة جوجام لتوزيع منشورات الإمبراطور، ويضعون الخطط لوصول القوات، وتوزيع الأسلحة على الوطنيين الأحباش، ومحاولة إقناع رؤساء القبائل وكبراء العشائر لاستقبال الإمبراطور والحرب من أجل عودته. وكان الإيطاليون يجدون في محاولات

القبض على ساندفور، ويبحثون عنه برا وبالطائرات أيضا. وأفلح الرجل في مراوغتهم والنجاة من شباكهم.

وعندما دخل الإمبراطور مدينة أديس أبابا ظافرا، لم تجد الكتيبة السودانية والكتيبة الإثيوبية الثانية ثناءً وإجلالا خير من تسيير طابور شرف أمام سيارة ساندفور التي كانت أمام سيارة أخرى كُتب عليها "الرأس الأصلع لقائد المهمة 101" (كما ورد في ص 67 من كتاب Abyssinian Campaign).

***

كانت المهمات التي تصدى لأدائها السودانيون وحلفاؤهم متعددة، وكانت دوما عسيرة وفرص نجاحها تبدو شحيحة أو مستحيلة.

كان على هؤلاء الجند تحمل البرودة القارسة التي تصل حد التجمد وهم على قمم الجبال التي يصل ارتفاعها 14,000 قدم، ومكابدة «مرض الجبال»، وكانوا أحيانا أخرى يعانون من شدة القيظ في مناطق مستنقعات مؤوبة بالبعوض، ويتسلقون حواف جبال يصعب الثبات عليها وهم يحاولون تفادي الرصاص المنطلق من فوهات المدافع الرشاشة، ويجاهدون لنقل معداتهم الثقيلة التي كانوا يضعونها مائلة أو معلقة على أعمدة من الخيزران لتحريكها إلى أعلى في المنحدرات، حيث يصعب إيجاد موطئ قدم. كانوا يتلمسون طريقهم وهم يبحثون عن عدو لا يرونه في وسط أعشاب قد يصل ارتفاعها لثمانية أقدام نثر فيها العدو الكثير من الألغام، ويقومون باختراق تلك الأعشاب الكثيفة، ويخوضون متعثرين أو يسبحون

في مياه الأنهار أو الجداول. ومن لم يكن يجيد السباحة منهم يتعلق بذيل جمل حتى يعبر به عبر المياه. وكانوا كثيرا ما يكونون عطشى أو جوعى، يتقطرون عرقا في الحرارة القائظة، أو يرتجفون من الرياح الاستوائية أو البرد القارس الذي يخترق العظام. ورغم كل تلك الصعاب فقد واصل الرجال – وهم في روح معنوية عالية – في معالجة آلات الحرب الحديثة الميكانيكية الغريبة تماما على معظمهم، إذ أن معظمهم كان قد أتى من البادية. وكان عليهم تفادي أو التغلب على الألغام المزروعة، ومتاريس الطريق، والأسلاك المتشابكة التي تربط كل حافة بأخرى.

وكان عليهم أيضا، رغم الإرهاق والانهاك، حمل الزاد والذخيرة وكل أدوات الحرب على ظهورهم لأميال طويلة، أو تحميلها على بغال أو إبُل كان عددها يتناقص باستمرار وبسرعة بفعل قسوة الظروف في الحملة. ولم يبق من الـ 17,500 جملا التي بدأت مع الإمبراطور عند عودته لعاصمته إلا نصف ذلك العدد بسبب أخطار تلك الرحلة الطويلة أو بسبب هجوم "الذبابة" (لعل المقصود هو ذبابة تسي تسي التي تنقل داء المثقبيات في الإبل). المترجم

وكانت مصاعب النقل كبيرة للحد الذي أضطر قادة القوات لاستخدام ثلث المحاربين لمسافات طويلة في أعمال نقل وترحيل وتخزين المُؤَن والذخيرة. ومع مرور الأيام تناقصت تدريجيا أعداد الرجال الذين بمقدورهم المشاركة الفعلية في القتال وذلك بسبب استخدام كثير منهم في حراسة آلاف الأسرى وحمايتهم من غضب الأحباش. وهنا يجب الإشادة بسلوك الأحباش، الذين لم تسجل ضد

أي واحـد منهم محاولة انتقام من أي رجل أو أمرأه أو طفل إيطالي، رغم المعاملة القاسية التي لقوها على أيدي الايطاليين.

وعقـب الانتصـار في الحبشـة تم تعيـين اللواء بلات قائـدا عاما للقـوات في كل شرق أفريقيـا، وهـي منطقة تمتد إلى نهـر زمبيزي. وكان مسـئولا عن كل سـجناء الحرب في كينيـا وغيرها من المناطق. ولم يسمع ذلك اللواء أي قصة عن انتقام (من الأحباش).

سـيبحث طالب التاريخ المحب للتحقيـق والتوثيق – دون جدوى – في الخريطـة عن أسـماء البلدان التي جرت فيهـا كل أو بعض تلك الأعمـال البطوليـة والانتصارات العظيمة. ولكن سـيذكر ويسـجل التاريـخ دوما ذكرى لن تنمحي لأسـماء مثل كرن وديبرا وماركوس وأمبـا الاقي وغوندار والشـقلة (حيث قتلت ثـلاث سرايا من الكتيبة المختلطـة نحو الفا من جنـود العدو في قتال اسـتمر ليومين ونصف يوم). خلدت تلك الأسـماء شجاعة السـودانيين وتحملهم للصعاب في تلـك المعارك، والدور الكبـير الذي لعبوه فيها، رغم أنـه لم يعد فيما بعد دورا رئيسـا. وسـيذكر الناس لسـنوات قادمات اقتحام القوات البريطانيـة وحليفتها القـوات الهندية لمرتفعات كرن، ومسـيرتهما الطويلـة وهجومهما على مواقع تحصينـات العدو الذي كان يفوقهم عددا وعدة، وتحملهما للأسقام وقسوة الطبيعة.

ولكن عـلى الرغم من أن السـودانيين كانوا قـد حاربوا بضراوة وشـجاعة في الحبشة، ولاحقا شـاركوا مع الجيش الثامن – لحراسة صحاري جنـوب ليبيا، ومدن ليبية مثل برقة وطرابلس، وحراسـة خطـوط الاتصال في المناطق التـي احتلها الايطاليـون، إلا أن أفضل إنجازاتهـم كانـت بلا شـك خلفهم عندمابـدأ الزحـف الكبير لطرد

الايطاليين. وحتى وصول الفرقة الخامسة من الجيش الهندي بعد ثلاثة أشهر، ظلت القوات السودانية تحافظ على 1200 ميلا من الحدود السودانية ضد تغول الايطاليين بجنودهم ودباباتهم وطائراتهم ومدفعيتهم الميكانيكية، رغم ضعف تسليحهم وقلة أعداد أفرادها (بنسبة 1: 10 بالنسبة لجنود العدو). وأتى لمسرح العمليات الآن اللواءات والضباط النظاميين بعد أن كان من يقود المعارك هم الرواد والنقباء والمدنيين المتطوعين (وقد أنجز هؤلاء بالفعل انتصارات لا تنكر). واختفت من مسرح العمليات بعض المجموعات الصغيرة (الغريبة) التي حملت أسماءً مثل قوة ميدو، وقوة ديمسي، والقوة المثلجة، وقوة الغزال، وقوة كير، وقوة بكر، وقوة قدوين، رغم أنها كانت قد أحرزت الكثير من الانتصارات الباهرة. وعاد أفراد تلك الجماعات إلى حياتهم المدنية المعتادة في مجال الزراعة والرعي والصيد وهم في غاية الفخر بأنهم قاموا بالواجب الذي تطوعوا لأدائه على أكمل وجه، وانتصروا على الأعداء في كل المعارك التي خاضوها ضده. ولا أظن أن هؤلاء المتطوعين كانوا يدركون تماما مدى أهمية صنيعهم البطولي وصدهم للغزو الإيطالي. فلو قدر للإيطاليين النصر وفُقد السودان فقد كان طريق الشرق سيفتح على مصراعيه لقوات دول المحور، وكان أمد الحرب سيطول، وكان ذلك سيفضي لنتائج كارثية.

وقلما يحدث أن تجتمع عناصر متباينة عديدة في وحدة كلية متناغمة. كانت قوات دول الكومنويلث قد حاربت في السودان وشرق أفريقيا من أجل تحرير البشرية. فقد أتحد من أجل تحقيق ذلك الهدف الأفارقة والآسيويون والأوروبيون ورجال من دول

الكومنويلث –تم جزئيا تسليحهم من العالم الغربي، ومُدوا بالغذاء جزئيا من الأجزاء الواقعة على الجهة المقابلة من الكرة الأرضية (antipodes). وأحتفل كل هؤلاء سويا بالنصر المشترك الذي أحرزوه. وعندما أعلن اللواء وليام ويثرأوول (القائد العام للفرقة الأفريقية الحادية عشرة في الحبشة. المترجم) عن الانتصار النهائي عقب سقوط غوندار وأرسل رسالة تهنئة لقواته، قرئت رسالته بما لا يقل عن عشر لغات مختلفة. كان جنده بالفعل يستحقون التهنئة. لم يكن مجموع قواته من مختلف البلدان يفوق سبعين ألفا ولكنها أفلحت في الحاق هزيمة ماحقة بعدو يفوقه في العدد والعدة، دون أن تخسر هي – للغرابة – أعدادا كبيرة من جندها. ومع مرور الشهور بدا أن الجيش الإيطالي سيخسر الحرب لا محالة، ففر من صفوفه عشرات الآلاف من الأهالي الذين تم تجنيدهم في ذلك الجيش. وتم في نهاية المطاف طرد الإيطاليين من كل أرجاء أريتريا وكل غرب الحبشة تقريبا إلى أديس أبابا.

لا ريب أن الجنود قدوجدوا أن كل الصعوبات والأخطار والمشقات التي كابدوها تستحق البذل عندما يتأملون في كمية ما كسبوه من غنائم وأعداد من أسروهم من مقاتلي العدو الإيطالي. ولعل جنود الفرقة الهندية الرابعة كانوا أكثر الذين يحسون بذلك، فقد كانوا قد نقلوا على عجل إلى مرتفعات (كرن) بعد أن كانوا قد أحرزوا عددا من الانتصارات الباهرة في رمال الصحراء الغربية في مصر.

ربما سيضع التاريخ معركة (كرن) كأحد أهم المعارك الحاسمة في الحرب العالمية الثانية. فإن أي تأخير في تدمير القوات الإيطالية في شرق أفريقيا كان سيعني بالضرورة تعطيل قوات كبيرة ومعدات

حربية كثيرةعن المشـاركة في الدفاع عن مصر في وقت شديد الحرج. ويعزى توفير تلك القوات والمعدات الحربية في مناطق أخرى لشجاعة وحنكـة اللواء بلات، الذي قرر مهاجمة مـا بدا أنه حصون منيعة لا يمكـن اختراقها، مخالفـا ذلك لآراء بعض معاونيـه. وأتى انتصاره الكبـير الـذي توج به كل انتصـارات المعارك التي خطـط لها نتيجة لتحضيرات مضنية امتدت لشهور.

لـم يكن يقود حملة كبيرة فحسـب -وكانت تلـك هي الأولى التي حسـمت بانتصار نهائي في الحرب العالمية الثانية - بل كان مسؤولا عـن كل التدابـير والتحـركات العسـكرية في السـودان، إضافة لكل المشـاكل المدنيـة المصاحبة لها. فـكان كثيرا ما يسـتقل الطائرة من جبهة القتال للخرطوم لمعالجة تلك المشـاكل ساعة ظهورها. غير أن النصر النهائي لم يكن ليتحقق إلا بفضل بصيرته المبتكرة (والباكرة) حيـال الدور الذي يمكنه أن تؤديه سرايا المدافع المتحركة إن نشـبت الحـرب.وكان هذا قبل بـدء الأعمال العدائية بوقـت ليس بالقصير. وعلى الرغـم من أن سرايا المدافع المتحركة لعبت دورا ثانويا فقط في المراحل المتأخرة للمعارك، إلا أن دورها في مراحل الحرب الأولي كان قياديـا وبالغ الأهمية. وإن كان دورها في التقدم الناجح نحو أرتيريا وأثيوبيا ثانويا، إلا أنها كانت شديدة الأهمية في الدفاع عن السودان. ولولا ذلك الدور الدفاعي الحاسـم لمـا كان بالإمكان القيام بأي عمل هجومي على الإيطاليين في الحبشة وأرتيريا.

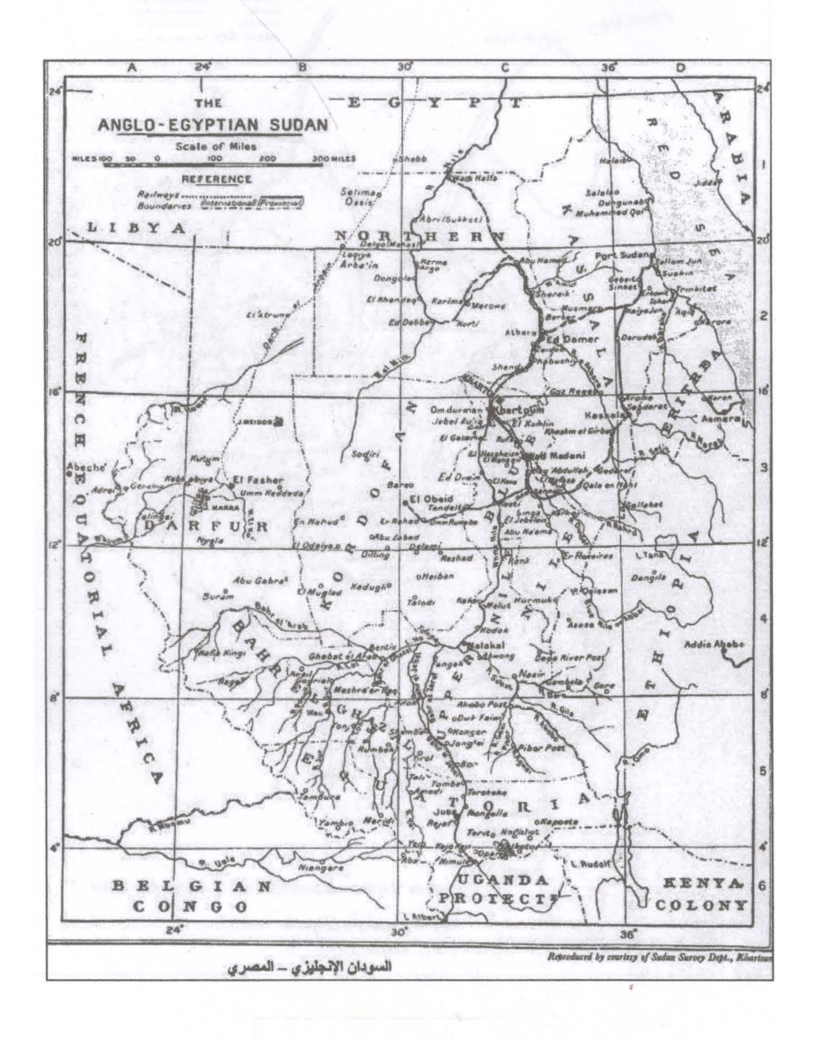
إنــه لمن دواعي الغبطــة والسرور أن يتأمل المرء في أن ما قامت به تلك القوات سـيظل باقيا ولن ينسى. أي ذكرى رائعة للأموات، وأي الهام أكثر نبلا للأحياء يمكن أن يوجد أكثر مما ورد من ثناء وإشادة

بالسودانيين في التقرير السنوي عن حملات الحبشة:

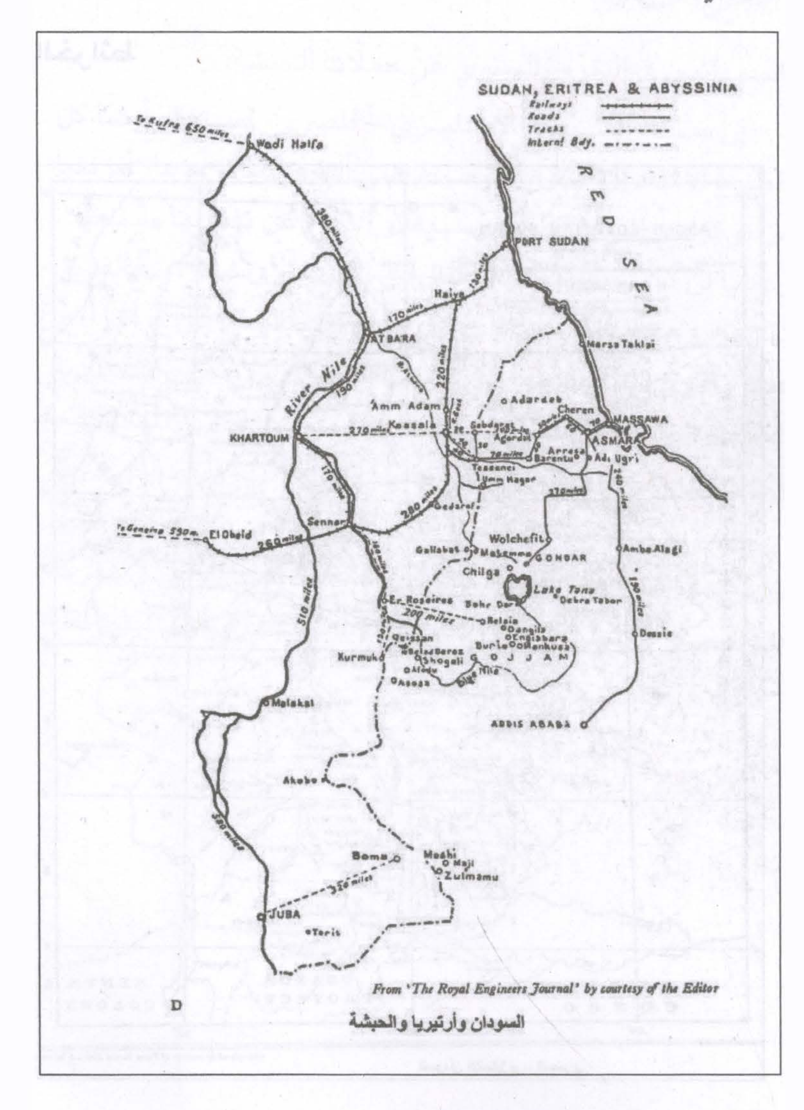
«إن سقط السودان الإنجليزي - المصري، فسنفقد أيضا كل خطوط الامداد إلى الشرق الأوسط حتى البحر الأحمر، وعبر أفريقيا من توكرادي إلى الخرطوم. وسيغدو الدفاع عن نفسها مستحيلا. وعمليا لن تكون لدينا جبهة (قتال) في الشرق الأوسط .... فالفريق بلات ورجاله كانوا قد أفلحوا في خداع الإيطاليين بأن قواتنا أكبر عددا وأقوى تسليحا مما هي عليه في الواقع. ووقع عبء تلك المهمة العسيرة والحيوية بصورة رئيسة على سرايا المدافع المتحركة - وكانت كلها قوات سودانية مع ضابطين بريطانيين فقط لكل سرية - لا ريب أنهم يستحقون في معركتهم بأفريقيا ذات الثناء الذي ذكره رئيس الوزراء وهو يشيد بطياري سلاح الجو الملكي في معركة بريطانيا، حيث قال إنه من النادر أن (يدين الكثيرون بالكثير لقلة قليلة).

النهاية

الخرائط



السودان الإنجليزي ـ المصري



السودان وأرتيريا والحبشة

رقم الإيداع: 2020/0118